من أمثال القرآن

الجزء الأول

حازم خالد

الكتاب: من أمثال القرآن.. الجزء الأول

الكاتب: حازم خالد

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

ه ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

خالد، حازم

من أمثال القرآن ..الجزء الأول – حازم خالد – الجيزة –

وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٨.

تدمك: ٦-٧٠٦-٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع / ٤٨٤٢ /٢٠١٨

من أمثال القرآن

الجزء الأول

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة :

عكف علماء المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام على بيان ما اشتمل عليه القرآن الكريم من حقائق إلهية وكونية ، وما يرشد إليه من معارف وعلوم ، بدأ ذلك في المسجد النبوي والمسجد الحرام على أيدي الصحابة ، ثم تلاميذهم من التابعين ، وكذلك حذا حذوهم علماء الصحابة الذين رحلوا إلى الأمصار الأخرى في العراق والشام ومصر وسائر بلاد المسلمين ، وكان المسجد ساحة الدرس ، واتسعت المعارف التي تدور حول القرآن حتى ليمكن أن يقال إن كل ما نشأ من علوم اللغة والبيان والتفسير والعقيدة وسواها كان الهدف منها خدمة ذلك الكتاب وبيان أسراره .

فالأمثال لون من هذا البيان ، الذي نضج في تراثهم المثل السائر في كلام العرب كثير نظما ونثرا ، وأفضله أوجزه وأحكمه أصدقه ، وهي ضروب من الأقوال الفنية البليغة المتضمنة للحكم ، التي عبرت عن أوضاع اجتماعية أو نفسية أو فكرية أو سلوكية ، فلذلك كانت أكثر جريانا على ألسنة الناس ، فقالوا : مثل شرود وشارد أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد ، ففيها الحكم والعبر والمواعظ والتوجيه والإرشاد ، ومقارنة الأشباه والنظائر ، واستحضار المعنوي بالمحسوس ، والغائب بالحاضر ، وإفحام الخصم والمعاند – ولهذا السبب كانت الأمثال الموجزة كثيرة في كلام الأنبياء والحكماء ، وفي الشعر والخطب ، يستحضرها القوم في المناسبات والمنتديات والأسواق الأدبية ، تبرز نمط الحياة ، وأذواق الناس ، وطريقة تفكيرهم .

وإذا كان للأمثال هذا القدر الكبير من التأثير في حياة الناس تفكيرا وسلوكا وأخلاقا ومعاملات فإن كتاب الله أولى باستعمالها من أجل الموعظة والتوجيه والاعتبار ، لأن رسالة

الإسلام جاءت من أجل إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . وكل وسيلة تبلغ الإنسان إلى هذه الغاية كان كتاب الله يستعملها.

ويعد علم أمثال القرآن من أعظم تلك العلوم التي نشأت في رحاب القرآن الكريم ، فهو باب عظيم من معارف القرآن ، حيث اشتمل على كثير من الأمثال والمثل وهو بالتحريك مأخوذ من المثول وهو الانتصاب ، ومنه قول الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – على من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار ، ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن المشتمل ، إما على تشبيه بلا شبيه أو استعارة رائعة تمثيلية وغيرها أو حكمة أو موعظة نافعة أو كناية بديعة أو نظم من جوامع الكلم الموجز ، فالمثل يدل على مناظرة الشيء للشيء ، فإذا قيل : هذا مثل هذا أي نظيره ، معنى الضرب للمثل : ضرب الله سبحانه وتعالى لعباده الأمثال ، حيث قال في كتابه العزيز: "وتلك الأمثال نضربها للناس" وكذلك ضرب الرسول – ﷺ – لأمته المثال ، وضرب الحكماء والعلماء والأدباء الأمثال.

فالحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب يقربها إلى الإفهام بقياسها على المعلوم اليقيني ، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان ، وذلك مثل تشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس، وقيام النظير على النظير، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه ، ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف ، ومنهم من عقد لها بابا في كتاب من كتبه ، فأفردها بالتأليف أبو الحسن الماوردي ، وعقد لها باباً السيوطي في الإتقان، وابن القيم في كتاب إعلام الموقعين حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم فبلغت بضعة وأربعين مثلا.

وعلى حسب علماء اللغة ، أن ضرب المثل فيه أربعة أقوال ، أولهم : أنه مشتق من الضرب كالقول بضرب الأرض ، أي سار فيها ، ومعنى ضرب المثل هنا أي جعله ينتشر ويذيع ويسير في البلاد ، وثانيهم : معنى "ضرب المثل" أي نصبه للناس بإشهاره لتستدل عليه خواطرهم ، كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة واشتقاقه حينئذ من قولهم "ضربت الخباء" إذا نصبته ، ثالثهم : يفهم من ضرب المثل صنعه وإنشاؤه ، فيكون مشتقاً من ضرب اللبن وضرب الخاتم، رابعهم : إبقاء شيء على شيء ومنه ضرب الدراهم ، أي إيقاع النموذج الذي به الصك على الدراهم لتنطبع به ، فكأن المثل مطابق للحالة ، أي للصفة التي جاء لإيضاحها.

وموضوع المثل في القرآن هو التمثيل القياسي الذي تعرض له علماء البلاغة في علم البيان، وهو عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم ، أن تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، وهو قائم بالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، وقد ذكروا له أركانا ، وتتمثل في المشبه ، وهو ذلك الأمر الذي يُراد إلحاقه بغيره فمثلاً قولك لزيد أنت كالأسد فـ "أنت" هو المشبه . المشبه به ، وهو الأمر الذي يلحق به المشبه وهو الأسد ، وهذان الركنان يسميان بطرفي التشبيه ، ثم يأتي الركن الثالث المتمثل في وجه الشبه ، أو الوصف المشترك بين الطرفين ، ويكون في المشبه به أقوى منه في المشبه ، وهو الشجاعة فعند الأسد أقوى بالطبع أي المشبه به ، والركن الرابع في التشبيه أداته ، وهو ذلك اللفظ الذي يدل على التشبيه ، ويربط المشبه بالمشبه به ، وقد تذكر الأداة في التشبيه كالكاف في مثالنا المذكور ، وقد تحذف كما لو قلت ، " أنت أسد " .

ولضرب الأمثلة في القرآن الكريم فوائد جمة نبه إليها الرسول الكريم – ﷺ – في قوله " إن القرآن نزل خمسة أوجه ، حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام وابتغوا المحكم وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال " ، كذلك معرفة أمثال القرآن الكريم من الأمور التي أوجب الشافعي على المجتهد معرفتها من علوم القرآن ، فقد نقل عنه الزركشي قوله: "ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المثبتة لاجتناب معصيته ، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل"، فإن حكمة الله اقتضت ضرب الأمثال للناس لما في المثل من إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً ، كما أنه يخرج اللفظ الخفي إلى الجلي ويدني البعيد من القريب ويزيد المعاني رفعة ووضوحاً ، ويُكسبها جمالاً وفضلاً ويكسوها شرفاً ونُبلاً ، فإن حقائق ما وراء الغيب تحتاج إلى تقريب للذهن ولا تقرب إلا بالأمثلة التي تبرز المعقول في صورة المحسوس ليلمسه الناس فيتقبلوه ، فالمعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة إلى الذهن ، وبهذه الأمثال تكون الحقائق واضحة وجلية ، وكذلك تكشف الأمثال القرآنية عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر ، كما في قوله سبحانه وتعالى : "الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس " وهذه حقيقة آكل الربا ، وكما في قوله سبحانه : " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق " – الأنبياء – فكأن الحق ، وهو معنى مجرد ولعظم شأنه قذيفة ثقيلة ترمى على الباطل الهش الواهي فيرديه جثة هامدة ، وقد استخدمت في هذا المشهد العظيم صورة الصراع الأزلي بين الحق والباطل .

علماء التفسير اتفقوا على أن قوة أثر الأمثال القرآنية ترتبت على ارتباطها بالمجتمع في معتقداته وتفكيره وأخلاقه وسلوكه وعاداته وتقاليده من أجل إصلاح الأفراد ، وتوجيههم إلى سبيل الخير ، فقبحت الكفر والعصيان والضلال، وزينت الإيمان والتقوى،

ودعت إلى الاستقامة والعمل الصالح،وأن هذه الأمثال تهدف إلى الترغيب في الممثل به، ويتضح ذلك جليا في قوله – ﷻ– : " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " – البقرة – وكذلك قوله سبحانه وتعالى مرغباً في الكلمة الطيبة " : ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء " .

وفي المقابل ، تؤكد هذه الأمثال على استقباح صفة في الممثل به ، كقوله تعالى في ذم أحد علماء بني إسرائيل لمعارضته رسول الله موسى – عليه السلام " واتل عليهم نبأ الذي أتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا " وإنه في أحيان كثيرة تأتي هذه الأمثال لتكون أبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الاقتناع وأوقع في النفس ، فإنك عندما تعظ وتريد أن تكون موعظتك بليغة فإنك تستخدم مثالا ليكون أبلغ في الوعظ وأوقع في النفس ، فتقول لمن أردت زجر من يتعاطى المعاصي ويقيم عليها لا تكن كالبهيمة ، وفي ذلك يقول رب السموات والأرض زاجراً : أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، وقوله أيضا : ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون إيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة .

ولهذا كله ، يتأكد بما لا يدع مجالا للشك أن المسلمين جميعهم في حاجة إلى التأمل والتدبر كثيراً في هذه الأمثال القرآنية ، فالقرآن نفسه يطلب منا الوقوف على حقيقة المثل فيه ، حيث يقول سبحانه وتعالى " : يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له " إلا أن المشكلة هي أن المسلمين فقدوا القدرة على القراءة البلاغية للقرآن ، ومن ثم أغفلوا موضوع الأمثال في القرآن ، في حين أن هذه الأمثال من أعظم المواعظ والبصائر،

فيا حبذا قراءة القرآن قراءة جديدة تحدث في النفس الموعظة والخشية والرهبة والرغبة ، لما في ذلك من خير كثير وضحه رب العزة في قوله تعالى " : وما يعقلها إلا العالمون " ، وقوله أيضاً : وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

وهكذا يقول أحد علماء التفسير : إن الأمثال وأشباهها في القرآن من عبر ومواعظ وزواجر ذات أثر إيماني عظيم ، لأنها تتميز بالوضوح وعدم اللبس في أركانها ، إلا أنه على الرغم من ذلك لا يعقل معانيها إلا أهل العلم ، وأن هذه الأمثال مع إيضاحها للحق يهدي بها الله قوماً ، ويضل بها قوماً آخرين ، كما في قوله تعالى " : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين "، ولا شك أن الذين استجابوا لربهم هم العقلاء الذين عقلوا معنى الأمثال ، وانتفعوا بما تضمنت من بيان الحق ، وأن الذين لم يستجيبوا له هم الذين لم يعقلوها ، ولم يعرفوا ما أوضحه من الحقائق ، فالفريق الأول ، هم الذين قال الله فيهم : " ويهدي به كثيرا " ، اما الفريق الثاني فهم الذين قال فيهم الله "يضل به كثيرا" ، وقال فيهم أيضاً " وما يضل به إلا الفاسقين ".

وكان ضرب الأمثال أحد أهم أساليب الإقناع المعروفة عند العرب قبل نزول الوحي، ومن ثم عرفت الأمثال العربية والأمثال الشعبية ، وفي ذلك يقول الزمخشري : ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن . والغائب كأنه شاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح

الأبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين ، وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله وكلام الأنبياء والحكماء.

د.عبد البديع أبو هاشم – أستاذ التفسير بكلية أصول الدين يقول : الغاية من ضرب الأمثال هو تقريب الأمر المعقول إلى حكم المحسوس ، فتظهر التصورات العقلانية في صورة أمور محسوسة ، وجماله وإبهاره يكمن في عرضه للمعنى الرائع الضخم في عبارة موجزة ، فالأمثال أيضا تسعى لتحديد وتشخيص المعنى ليكون أقرب للسامع ، فالتجسيد أقرب للذهن من التجريد الذي يحتاج إلى عقلية قادرة على استخلاص المعنى ، بعكس التجسيد الأقرب للاستيعاب.

ويرجع د. عبد البديع الإبهار الذي يغرق من يقرأ هذه الأمثال ويتوقف لفهمها وتدبرها إلى خصائص المثل القرآني الذي يتسم بالإيجاز والدقة والعمق في المعنى والواقعية وشدة تأثيره في النفس وشموليته وعمومه ، وأنه عز وجل يقول في هذا الصدد " : لقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر جدلاً ، فالإنسان بفهمه لآيات الله يبدأ بالإبهار ثم الجدل ، ثم يواصل رب العزة المعنى بقوله: " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون " / وأنه هكذا صور الله القلوب القاسية التي فاقت في قسوتها الحجر، والذي وإن بدا في نظرنا جامدا ، إلا أن بعضه يتهاوى من خشية الله ، على عكس هذه القلوب الجامدة المستقوية.

يؤكد د. عبد الحليم محمود أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر: إن الأمثال القرآنية لم تترك موضوعا إلا طرقته ، وجسدته ليكون أقرب للفهم وأسرع في بث العظة ،

وتختلف المقاصد من وراء ضرب الأمثال باختلاف الهدف منه ، وأنه هناك أمثلة تضرب للحث على التأمل والتدبر ، وأخرى للتذكير ، وثالثة لتقريب المعنى ، ورابعة لإقامة الحجج ، وخامسة للتحذير ، وسادسة للترغيب، وهكذا ضرب الله مثل المنفق رئاء الناس " كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا " ، إنه عز وجل هكذا يصور المنفق تباهيا وتفاخرا كمثل الحجر المترب الذى يصيبه مطر غزير فيذهب ما عليه من تراب ، ومثله تذهب أعمال المرائي سدى وهباء ولا يعود عليه بالثواب ، وعلى العكس تماما ضرب الله مثل الذين ينفقون في سبيله " كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ".

وهناك أمثلة ضربها الله للمدح ، فعندما وصف الله صحابة الرسول الكريم ﷺ وعنهم قال : "ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأة فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار".

ويرى د. منيع أن القرآن يزخر أيضا بالعديد من الأمثلة التي تدفعنا لاجتناب المعاصي بما تصوره من مدى قبحها ووحشيتها ، ففي دعوته لنا لتجنب الغيبة قال : " ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " ، وتظهر السخرية والتهكم واضحة في أمثال أخرى يضمها الكتاب الكريم ، منها وصفه تعالى لمن يتبع هواه وكذب بآيات الله كحال الكلب " فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " ، سخر أيضا من الكفار وشبههم بالحيوان الذي لا يفقه شيئاً : ، " ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم فهم لا يعقلون " ، وفي قول آخر : " أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ".

أما المعرضون عن القرآن ولا يزال الكلام موصول للدكتور منيع عبد الحليم – فوصفهم بقوله " فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة " ، وفي قول آخر: "

إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ".

ويروي لنا أحمد بن محمد طاحون في كتابه " أمثال ونماذج من القرآن العظيم " أن ذكر بعض الأمثال بالقرآن الكريم دفع بعض الجهلة في عهد صدر الإسلام وبعده للتطاول على القرآن متسائلين باستهزاء : كيف يكون كتاب الله وفيه ذكر لمخلوقات يحتقرها الناس كالذباب ، والحمار ، والكلب والعنكبوت ؟ معتبرين أن ذلك يقلل من قدسية ومهابة الكتاب ، موضحا أن الحق تبارك وتعالى يرد على هؤلاء بقوله: " إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ". وأن الجهلة والسفهاء من قريش كانوا يسخرون من الأمثال التي جاءت بالقرآن بقصد التشكيك وزرع بذور الشرك ، فجاء الرد الإلهي : " وما يعقلها إلا العالمون ". وهو قول قصد به الثناء على أهل العلم والفطنة والتدبر والتعقل وذم وتقبيح للسفهاء والجهلة لعدم تقديرهم لقيمة الأمثال.

ويذكر ابن طاحون في كتابه أن الأمثال أيضا ضربت لبيان مدى ضلال المنافقين وإقامة الحجج على وجود الله ، وتقديم البراهين على البعث والحساب والجزاء ، وتقريب المعاني ، إلا أن هذه الأمور جميعا لا يدركها إلا المؤمنون ، أما الكافرون فهم " صم بكم عمي " ، وكذلك المنافقون " مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون " ، أما من كذب بآيات الله فمثلهم " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ".

مثل الرجلين المؤمن والكافر

يقول الله تعالى : (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا ، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولدا ، فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) (الكهف: ٣٢-٤٢).

لقد ضرب الله مثلا للكافرين في وصف حال الكافر الغني المزهو بماله والمتكبر على الناس والجاحد لنعم الله ، وحال المؤمن الذي امتلأ قلبه بالإيمان ، وازداد ثقة بالله ، فليس المال في نظره كل شيء ، وإنما هو عرض من عرض الحياة الدنيا ، الذي كتب عليه الزوال . وعرض القرآن أسلوب الحوار بين الغني الكافر والفقير المؤمن ، فالكافر أطغاه ماله ، والمؤمن أغناه إيمانه ، والإيمان حقيقة لا تقبل الزوال.

أما المال فظل زائل وعارية مستردة ، فرق بين من يتعلق بالأرض فتجذبه إليها فعمي عن الحقائق ، وبين من يتجه إلى الله فينفض عن كاهله غبار المودة وتلوثها ، ثم كان الفصل والحكم في الدنيا قبل الآخرة ؛ هذا الكافر وهو في أوج صلفه وغطرسته ، يصبح وقد ذهب كل شيء ، فالمال ولّى ، والجنة أهلكت ، فأي سند له في هذه الحياة ، طالما تخلى عن السند الأعظم ، فحلت به الهموم ، ونزلت به الكوارث ، وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، وتصدر منه كلمات تدل على أسفه وندمه ، ولكن في وقت لا ينفع فيه الأسف ولا الندم ، حسرة في الدنيا ثم عقوبة في الآخرة.

أما المؤمن فلم ينظر إلى الدنيا هذه النظرة ، بل اتجه إلى خالقه ، قيوم السموات والأرض ، فالمال مال الله ، يُعز به من يشاء ، وما كان المال مصدر جاه أو عزة عند العقلاء ، والدنيا يعطيها لمن أحب من لا يحب ، ولكنه لا يعطي الدين إلا من أحب ، شتان بين غنى المال وغنى النفس ، وشتان بين الجشع والشراهة وبين الرضا والقناعة.

أما عن المثل وتصويره ، يقول الشيخ محمد أبو زهرة : وهذا المثل الواقعي التصويري فيه دليل على إثبات حقيقتين — أولاهما : أن المغتر دائما يدلي به غروره إلى أن يحكم على المستقبل بما هو عليه في الحال القائمة ، والقوة الموهومة ، فذو الجنة والنفر ظن أن الحاضر ينبئ عن المستقبل وغره بالله الغرور ، وتعالى من غير علو ، وتسامى من غير سمو ، واستقوى من غير قوة ، فجاء المستقبل وخيب الأمل وكشف الحقيقة.

أما الحقيقة الثانية : إثبات أن الولاية والنصرة لله سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المالك للأمور كلها في ماضيها ومستقبلها ، وشاهدها وغائبها ، وبالتالي كان المثل دليلاً على وباء الغرور ، وأن الأمر لله وحده.

وقدم الشيخ أبو زهرة لهذا المثل بقوله : ومن الأمثلة الموضحة التي تثبت كمال سلطان الله وأنه وحده القادر ، وبطلان غرور الإنسان إزاء قدرة الله تعالى إلى قوله سبحانه: ثم ذكر آيات المثل من الآية ٣٢ إلى الآية ٤٤ ، ص ٣٨٣ من كتابه " المعجزة الكبرى القرآن ".

يقول الزمخشري موضحاً اسمى كل منهما : وكانا أخوين في بني إسرائيل ، أحدهما كافر اسمه قطروس ، والآخر اسمه يهوذا ، وقيل : هما المذكوران في سورة الصافات في قوله : (قال قائل منهم إني كان لى قرين) ، وأيد هذا النيسابوري ، وذكر الألوسي اسماً آخر للكافر قال : اسمه قرطوس ، وقيل اسمه قطفير ، أما المؤمن فاسمه يهوذا في قول ابن عباس ، وقال مقاتل : اسمه يمليخا ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أنهما أبناء ملك من بني إسرائيل ، ثم قال : وقيل هما أخوان من بني مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الأسد ، ومؤمن هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد (زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ) ، وقد ذكر هذه الرواية النيسابوري والزمخشري ، كما ذكر الخازن روايتي الزمخشرى ، وأشار إلى رواية ابن عباس في أن اسم المؤمن يمليخا.

وقال : قيل نزلت هذه الآية في أخوين من أهل مكة من بني مخزوم ، وهما أبو سلمة عبد بن عبد الأسد بن عبد باليل وكان مؤمنا ، وأخوه الأسود ابن عبد الأسد وكان كافراً ، وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه وشبههما برجلين من بني إسرائيل ، ثم ذكر اسم كل من الرجلين . وقد أشار الزمخشري إلى هذه الرواية كما ذكرها البيضاوي.

ويضيف الألوسي إلى هذه الرواية قوله : وقيل هما أخوان من بني مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الأسد ، ومؤمن هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والمراد ضربهما مثلا للفريقين والكافرين لا من حيث أحوالهما المستفادة ، مما ذكر آنفاً من أن للمؤمنين في

الآخرة كذا وللكافرين فيها كذا ، بل من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر ، أي ضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة والطاعة مع الفقر مال رجلين ، وهو الكافر بستانين لم يعين سبحانه مكانهما إذ لا يتعلق بتعيينه كبير فائدة.

ويقول المفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي في تفسيره لمعنى "اشتراك صاحب الجنتين . قال : اشتراك صاحب الجنتين : إن صاحب الجنتين لم يكن مشركاً بالله كعامة المشركين ، فليس في القرآن ما ينص على ذلك ، أو يشير إليه ، بل بالعكس يشعر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به ، فقد قال : (ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا).

فما كان شركه الذي تأسف عليه ، وقرع عليه سن الندم : (يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) ؟ الظاهر الذي لا خفاء فيه ، أنه كان أشرك بالله الأسباب ، فاعتقدها المصرفة المؤثرة ، التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه ، وازدهار ماله ، واعتمد عليها ، ونسي الله، وكفر بتأثيره وتصرفه).

هذا التفسير فيه تمحل وبعد عن المعنى المفهوم من سياق الآيات ، فالرجل كفر بالله لأنه أنكر البعث ، كما يقول الزمخشري : جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث كما يكون بالرسول ﷺ كافراً ، نقلاً من الكشاف جـ٢ ص ٣٩٠ .

ثم ما هو شرك عامة المشركين ؟ أليس على رأس قائمة المشركين كفار مكة الذين كانوا يعبدون الأوثان ويقولون : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ؟

أليس إنكار البعث كفراً بالله ؟ يقول النيسابوري : زعم الجمهور أن أخاه إنما حكم بكفره لأنه أنكر البعث ، وأقول : يحتمل أن يكون كافراً بالله أيضاً بل مشركا لقوله بعد ذلك : (يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) ، ولقول أخيه معرضا به : (لكنا هو الله ربي) ، وليس في قوله : (ولئن رددت إلى ربي) دلالة على أنه كان عارفاً بربه لاحتمال أن يكون قد قال ذلك بزعم صاحبه.

فالكفر كله ملة واحدة ، فمن أنكر معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر ، كيف وقد أنكر البعث ، ويؤيد هذا ما قاله المفكر الإسلامي "أبو الأعلى المودودي" : مع أن هذا الرجل لم يكن ينكر وجود الله ، بل كان يعتقد بوجوده تعالى ويؤمن به كما هو ظاهر من قوله : (ولئن رددت إلى ربي) ، إلا أن صاحبه رماه بالكفر بالله ، ذلك أن الكفر بالله لا يعني محض إنكاره وجوده تعالى ، بل إن الاستعلاء والتفاخر وإنكار الآخرة كفر بالله كذلك.

وإذا كان إشراك الأسباب واعتقاد التصرف عن طريقها كفراً ، كما يقول الندوي : فمن باب أولى إنكار البعث ، وهو أمر ظاهر من خلال حديثه ، وطالما أن الأمر واضح ، فليس هناك ما يدعو إلى التماس تفسير قد يكون بعيداً عن السياق والمفهوم منه.

ويعلق الأستاذ عبد الكريم الخطيب على هذا المثل بقوله : هذا هو الموقف في هذا المثل .. تسير فيه الأحداث سيراً طبيعياً .. ثم يبين أن القرآن أمسك بالصورة البارزة من صورة الخلاف بين الرجلين رجل آتاه الله النعمة فبطر بها وأشرك ، وبين رجل يطلب من صاحبه أن يتخفف من هذا الغرور وهذا البطر ، ويصلان إلى مرحلة التحدي . صاحب الجنتين يتحدى بهما القدر وصاحبه يفزع إلى الله أن تبطل هذا التحدي ثم يقول : ويجيء

يوم فإذا صبحه ينكشف عن حدث مروع تهتز له آفاق الجهة التي يعيش فيه هذان الرجلان .. لقد أصبحت الجنة أثراً بعد عين.

ثم يحدثنا عن عنصر المفاجأة في القصة فيقول : والقصة لم تشر إلى الزمن الذي مضى بين هذا الموقف الذي كان من الرجلين وبين التدمير الذي أصاب الجنتين ، فنحن لا نحس في القصة بأن فاصلاً زمنياً قد حدث ، وإنما ننتقل من الحوار فجأة إلى مشهد نطلع منه على الجنتين ، وقد ذهبتا بيد الهلاك والتدمير ، ويذكر الآيات : (وأحيط بثمره ..) إلى قوله تعالى : (وما كان منتصرا) ، ويعقب عليها بقوله : (وليس من شك في أن هذا الحدث المفاجئ لم يكن متوقعاً أن يجيء على تلك الصورة التي تذهب بالجنتين جملة وفي لحظة خاطفة.

وغاية ما كان متوقعاً هو أن يذهب الزمن بالجنتين ، أو بصاحبهما ، بعد أن يستوفي كل منهما عمره .. أو أن يكون ذهاب الجنتين شيئاً فشيئاً ، وزمنا بعد زمن ، على نحو ما يصيب كل معمور ، وينزل بكل موجود).

ويقول الشيخ محمد محمد المدني في تذليل هذا المثل : وقد أتبع الله هذا المثل العظيم الذي ضربه لتلك العبرة وهذا المغزى ، فبين لنا أن هذا الغني القوى عندما ولت عنه نعمته لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وذهب عنه نفره الذين كان يعتز بهم ، كما ذهبت عنه أمواله.

الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس

يقول الله تعالى : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) الآية "البقرة : ٢٦٥".

يبين الله في المثل السابق مصير المنفقين ابتغاء أهوائهم النفسية في حب ثناء الناس عليهم ، والعمل لمرضاتهم ، والبعد عن الجانب الأهم وهو التجرد في الأعمال لله عز وجل، فكانت النتيجة كما مر بنا خسراناً في الدنيا وإحباط عمله في الآخرة ، فماذا حقق ؟ وماذا استفاد؟.

في مقابل هؤلاء الناس آخرون طبعوا على خلال الخير ، يحبون الخير ويعملون به وله، ابتغاء مرضاة الله ، لأن هذا هو الأمر المدخر لهم في الآخرة ، وتثبيتاً من أنفسهم لتعويدها على الذل والكرم ، والجود والسخاء ، وأن المال وإن كان شقيق الروح ، فهو طريق لخدمة الناس ونفعهم ، والرسول عليه السلام مدح المال الصالح للرجل الصالح ، وفرق بين البخيل والمنفق ، هذا في الثريا وذاك في الثرى ، ومتى يلتقيان ؟

وهناك حديث عن الرسول الكريم يعرض في صورة مثل عن البخيل والمنفق حتى تتضح حقيقة هذا وصفة ذاك ، يقول الرسول الكريم في حديث رواه البخاري في صحيحه: " مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت او وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع " رواه أبو هريرة.

يعلق الإمام الأكبر الشيخ الراحل محمود شلتوت شيخ الأزهر الشريف على الإنفاق في سبيل الله على ضوء الآيات ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ من سورة البقرة فيقول : فهذه

مكانة الإنفاق في سبيل الله ، وهذه عدة الله الصادقة لمن يجود بماله في سبيله ، وهما كما ترى مكانة وعدة لم يحظ بهما شيء من التكاليف الإلهية ، سوى الإنفاق ، فالصلاة على مكانتها في الدين ، وعلى أنها الركن الذي يلي الإيمان ، لا تقع موقعها إلا إذا دفعت بصاحبها إلى القيام بحق الفقير والمسكين ، وكذا الصوم والحج ، لا نجد لهما في ترغيب القرآن وترهيبه مثل ما وجدوناه للإنفاق في سبيل الله ، فهل لنا أن نقرر أن الإسلام لا يقيم وزناً لشيء من تكاليفه ، إذا لم تغرس في قلب المسلم عاطفة الرحمة ، مبعث الإنفاق والبذل والعطاء ؟ نعم هذا هو ما اعتقده وهو ما يدل عليه القرآن الكريم.

ولابن قتيبة تعليق جميل على هذا المثل يقول فيه : ثم ضرب مثلا للمخلصين ، فقال: (مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم) أي تحقيقاً من أنفسهم فقال : (كمثل جنة بربوة) وأحسن ما تكون الجنان والرياض على الربا ، (أصابها وابل) ، وهو أشد المطر ، فأضعفت في الحمل ، ثم قال : (فإن لم يصبها وابل فطل) أي : أصابها طل ، وهو أضعف المطر فتلك حالها في النزل وتضاعف الثمر لا ينقص بالطل عن مقدارها بالوابل، وأن هذا المثل الذي صور المعقول في صورة المحسوس يلفت النظر إلى آيات الله في الكون ومنها إحياء الأرض الميتة بالزراعة ، ويضيف إلى هذا كيف تتضاعف الثمرات.

ويقول الشيخ خلف محمد الحسيني : إن هذا المثل المحسوس يلفت الأنظار إلى الزراعة، وكيف يتضاعف ثمرها إذا كانت في ربوة أي أرض مرتفعة ، لأن ارتفاعها يساعد نباتها على أن يأخذ ما يفتقر إليه من الهواء وأشعة الشمس الكافيين ومن الماء ، ولا وسيما ماء المطر الوابل أي الكثير أو الطل أي القليل او الرذاذ ، ويبدو من هذا المثل أن من أساليب الري النافعة للنبات أسلوب رش النبات من أعلاه بالماء ، وها هم أولاء علماء

النبات والزراعة ، قد اهتدوا حديثا إلى هذا الأسلوب الذي أشار إليه القرآن منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

ثم يوضح معنى (فآتت أكلها ضعفين) أي أعطت ضعفي ثمر غيرها من الأرضين ، فالوصف للبربوة يدل على مدحها وكرم تربتها وطيبها ، فهي إن لم يصبها وابل فطل يكفيها ويقوم مقام الوابل في إخراج ثمرها ضعفين لخصوبتها ، يعني أن المنفقين لوجه الله المخلصين له تنمو نفقاتهم ويضاعف الله ثوابهم ، كما ينمو نبات الجنة بالبربوة الموصوفة.

ويقارن د.محمد رجب البيومي الأستاذ بجامعة الأزهر بين المرائي والمخلص فيما قدما من إنفاق وبذلك فيقول : فإذا تركنا هذه الصورة الشائهة لذوي الزلفى من الأدعياء فسنجد مقابلاً لها صورة وضيئة لقوم أنفقوا أموالهم بالغة ما بلغت من القلة جهد طاقتهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم ، فكانت صدقاتهم الصادقة الخالصة كجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، إنك حين تريد أن تمدح هؤلاء أطيب المدح لا تجد أبلغ من أن تقول عن أحدهم جنة بربوة ، أما قول الله : (فإن لم يصبها وابل فطل) فمن أحسن القول وأبلغه ، إذا يدل على أن الخير الضئيل ، إذا صدر عن سماحة شاكرة لا تملك ما تمنح منه الكثير حل محل الكثرة الهاطلة من ذوى الخير الماطر ، والسبب المتقاطر لأن الأعمال بالنيات ولن يكلف الله نفسا إلا ما آتاها.

ود.محمد حجازي يوضح حقيقة المثل فيقول : مثلهم كبستان ذي أشجار ملتفة قد كست الأرض ، وهو بمكان مرتفع ، متمتع بالشمس والهواء ينزل عليه المطر الغزير فيثمر ضعفين من ثمر وأمثاله ، وإذا نزل عليه مطر بسيط أثمر ، وذلك لجودة تربته ونقاء منبته ، والمعنى في هذا التمثيل ، أن المنفق لله وفي سبيله وهو يقصد تثبيت نفسه على الخير كالأرض الجيدة التربة العظيمة الخصبة ، فهو يجود بقدر سعته وما في يده فإن أصابه خير

كثير أنفق كثيراً ، وإن أصابه قليل أنفق على قدر سعته فخيره دائم وبره لا ينقطع كالبستان، يثمر مطلقاً إذا نزل عليه مطر كثير أو قليل ، ولكن "من" في قوله تعالى : (وتثبيتا من أنفسهم) ماذا تفيد وهي كما نعلم حرف جر ؟ أتفيد الابتداء أم التبعيض أم غيرها.

ويجيب الإمام الألوسي على هذا فيقول : (وتثبيتا من أنفسهم) ، أي ولتثبيت أو مثبتين بعض أنفسهم على الإيمان – فمن تبعيضية – كما في قولهم : هز من عطفيه وحرك من نشاطه فإن للنفس قوى بعضها مبدأ بذل المال ، وبعضها مبدأ بذل الروح ، فمن سخر قوة بذل المال لوجه الله تعالى ، فقد ثبت بعض نفسه ، ومن سخر قوة بذل المال وقوة بذل الروح ، فقد ثبت كل نفس ، وقد تجعل مفعول تثبيتا محذوفا أي تثبيتا للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل أنفسهم وقلوبهم – فمن – ابتدائية كما في قوله تعالى (جسدا من عند أنفسهم) ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه ويعضده قراءة مجاهدة "وتثبيتا من أنفسهم".

ويجوز أن يكون "من" بمعنى اللام ، والمعنى توطيناً لأنفسهم على طاعة الله تعالى ، وإلى ذلك ذهب أبو علي الجبائي – وليس بالبعيد – وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذي هو الداء العضال والرأس لكل خطيئة.

وهنا يرد سؤال عن معنى التبعيض أورده الزمخشري وأجاب عنه فقال : قلت معناه إن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه فهو الذي ثبتها كلها ؛ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ، والمعنى ومثل نفقة هؤلاء في زكائها

عند الله (كمثل حبة) وهي البستان (بربوة) بمكان مرتفع ، وخصها لأن الشجرة فها أزكى وأحسن ثمراً .

وابن كثير يقول عن (كمثل جنة بربوة) : أي كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض ، ويبين أن فيها ثلاث لغات بفتح الراء وضمها وكسرها ، ويقول البيضاوي : أي ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة كمثل بستان مرتفع ، فإن شجرة يكون أحسن منظراً وأزكى ثماراً ، وقد ضرب بهذا المثل لعمل المؤمن كما جاء عن قتادة : هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن . ذكر ذلك الشوكاني.

ويعلل الغرناطي لجودة أرض هذه الجنة فيقول : لأن ارتفاع الجنة أطيب لتربتها وهوائها.

وهنا يرد اعتراض على هذا وهو أن المكان المرتفع لا يحسن ريعه لبعده عن الماء وربما تضربه الرياح ، كما أن الوهاد لكونها مصب المياه ، قلما يحسن ريعها فإذا البستان لا يصلح له إلا الأرض المستوية ، فالمراد بالربوة أرض طيبة حرة تنتفخ وتربو ، إذا نزل عليها المطر ، فإنها إذا كانت على هذه الصفة كثر دخلها وكل شجرها كقوله تعالى : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ، ومما يؤكد ما ذكرنا أن هذا المثل في مقابلة المثل الأول ، فكما أن الصفوان لا يربو ولا ينمو بسبب نزول المطر عليه فينبغي أن تكون هذه الأرض بحيث تربو وتنمو.

والرازي يورد هذا الاعتراض وهذا الإشكال كما ذكره النيسابوري ، ثم يقول في ختام هذه الإشكال : فكأن المراد بالربوة في هذا مثل كون الأرض بحيث تربو وتنمو ، فهذا خطر ببالي ، والله أعلم بمراده.

ولكن لماذا سميت ربوة ؟ يجيب الطبري لأنها ربت فغلظت وعلت من قول القائل ربا هذا الشيء يربو إذا انتفخ فعظم.

وما معنى (فآتت أكلها ضعفين) ؟ ، أي أعطت صاحبها أو الناس ونسبة الإيتاء إليها مجاز، "أكلها" بالضم الشيء المأكول والمراد ثمرها وأضف إليها لأنها محله أو سببه .. "ضعفين" : أى ضعفاً بعد ضعف ، فالتثنية للتكثير أو مثلي ما كانت تثمر في سائر الأوقات، بسبب ما أصابها من الوابل ، أو أربعة أمثاله بناء على الخلاف في أن الضعف هل هو المثل أو المثلان ، وقيل المراد تأتي أكلها مرتين في سنة واحدة ، كما قيل في قوله تعالى : (تؤتي أكلها كل حين) ، والوابل : المطر الغزير ، والطل : الرذاذ من المطر وهو اللين منه.

والألوسى يعتبر هذا التشبيه من التشبيه المركب العقلي ، هذا المثل صور عمل المخلص الذي يبتغي بعمله وجه الله ، وهذا العمل لن يضيع وسيجده ذخراً يوم القيامة ، هذا الجانب العقلي يراد له أن يقرب من الذهن فيصور بصورة المحسوس كأنه مجسم ، فأنت عندما تنظر إلى هذه الصورة التي رسمها المثل تجدها صورة فاقت الحد وتجاوزت الخيال ، وماذا بعد أن ترى المعقول في صورة المحسوس مشاهداً مجسماً إنها روعة التصوير القرآني.

الشجرة الخبيثة التي لا قرار لها

يقول الله تعالى : (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) (ابراهيم : ٢٦).

لقد ضرب الله مثلين مثلا للكلمة الطيبة ، ومثلا آخر للكلمة الخبيثة ، وكما يقال : وبضدها تتميز الأشياء ، فالحق ما كان ليعرف إلا إذا عرف الباطل ، وما كانت الكلمة الطيبة تعرف إلا بتعريف الكلمة الخبيثة. ولكل من الصفات ما يجعل الكلمتين متفاوتتين فهما ضدان لا يجتمعان، ونقيضان لا يلتقيان ، لا يصح أن نطلق على الكلمة الطيبة وصفاً غير الذى وصفت به كذلك الكلمة الخبيثة.

والمثل صور الكلمة الخبيثة بأنها شجرة خبيثة في هيئتها ومنظرها وطعمها ومذاقها ، ومع ذلك فلا أصل ثابت لها ، وليس لها فرع في السماء ، وإنما هي مقوضة الجذور ، لا قرار لها ولا استقرار ، فقد اقتلعت من فوق الأرض ، لأن الذي يثبت من له جذور ممتدة ، وأغصان ثابتة ، ومن هنا افترقت الشجرتان.

وهذا تمثل لكلمة الإيمان أو للمؤمن في الكلمة الطيبة المشبهة بالشجرة الطيبة ، وتمثيل للكفر وللكافر في الكلمة الخبيثة التي تشبه الشجرة الخبيثة في كل أحوالها من منظر وثمر وطعم مرارة ، فضلاً عن اهتزازها وعدم ثباتها مما جعلها مقوضة البنيان.

وقد عقد السيوطي مقارنة بين " مثل الكلمة الطيبة ، مثل الكلمة الخبيثة " قال : " مثل كلمة طيبة : هي لا إله إلا الله ، والشجرة الطيبة هي النخلة في قول الجمهور ، واختار ابن عطية أنها شجرة غير معينة ، إلا أنها كل ما اتصف بتلك الصفات . والكلمة الخبيثة

كلمة الكفر ، أو كل كلمة قبيحة ، والشجرة الخبيثة هي الحنظلة لمرارتها ، ثم أثار تساؤلات عبر عنها بقوله :

فإن قلت : لم عبر هنا بالاسم فرفع ، وقال في المؤمن : (ضرب الله مثلا) ، فعبر بالفعل ونصب؟ ، فالجواب أن المؤمن له حالتان ، لأنه انتقل من الكفر إلى الإيمان ، والكافر له حالة واحدة ثبت عليها ، ولم ينتقل عنها ، فلذلك عبر عن مثله بالاسم.

فإن قلت : هل الشجرة الخبيثة محصورة على الحنظل أو تطلق على كل ما ليس له ساق كالقثاء والثوم ، وفيها منافع جمة ، فكيف يشبه بها الكافر ، وهو منفعة فيه بوجه ؟ ، والجواب : إنما شبه بها من حيث أنها لا تثبت إذ ليس لها ساق ، فالتشبيه في اضمحلال العمل الخبيث وذهابه يوم القيامة ولا يقي إلا العمل الصالح ، والحكيم الترمذي في معرض مقارنته بين الكلمتين الطيبة والخبيثة يقول :

وقال : (ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة) ، وهي كلمة الشهادة ، طابت واستنارت، وتفرعت بالأعمال الصالحة ، وكلمة الشرك كشجرة خبيثة ، وهي الحنظلة ، ليس لها قرار ولا قائمة ، فهي ساقطة في الأرض.

وعن مثل الكلمة الخبيثة يقول ابن القيم : ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة ، فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا عرق ثابت ، ولا فرع عال ، ولا ثمرة زاكية ، فلا ظل ولا جني ولا ساق قائم ، ولا عرف في الأرض ثابت ، فلا أسفلها مغدق ، ولا أعلاها مونق ، ولا جني لها ولا تعلو بل تعلى ، وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك فالخسران كل الخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

ثم أورد آراء للضحاك وابن عباس والربيع بن أنس ، وقتادة في معنى مثل الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة ولكنها تدور حول تفسير الشجرة الخبيثة بالشرك والكفر.

قال الضحاك : ضرب الله مثلاً للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول : ليس لها أصل ولا فرع وليس لها ثمرة ، ولا فيها منفعة ، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله ، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس : ومثل كلمة خبيثة ، وهي الشرك كشجرة خبيثة ، يعني الكافر اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول : الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ، لا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملاً.

وقال الربيع بن أنس : مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية : إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم ، فقال له : ما تقول في الكلمة الخبيثة ؟ قال : ما أعلم لها في الأرض مستقراً ، ولا في السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى به يوم القيامة . (وفي تفسير الطبري جـ ١٣ ص ١٤١: "يوافى بها").

وقوله : اجتثت أي استؤصلت من فوق الأرض.

ثم شرح ابن القيم بعد هذا فضل الله وعدله في الفريقين على ضوء قول الله تعالى عقب المثلين : (ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ، وتحدث عن القول الثابت في الدارين وأثره وثمرته في القبور ويوم المعاد.

لكن ما هي الشجرة الخبيثة التى جعلت مثلا للكلمة الخبيثة ؟

اختلف العلماء فمنهم من قال إنه الثوم ، لأنه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة، وقيل : إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار. وقيل : إنها شجرة الشوك . هذا ما قاله الرازى في تفسير الشجرة الخبيثة جـ ١٩ ص ١٢١.

أما الألوسي فقد قال : والمراد بهذه الشجرة المنعوتة "الحنظلة" ، وروي ذلك أيضا مرفوعا إلى رسول الله ﷺ ، وعن الضحاك أنها الكشوت ، ويشبه به الرجل الذى لا حسب له ولا نسب كما قال الشاعر :

فهو الكشوف فلا أصل ولا روق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وقال الزجاج وفرقة : شجرة الثوم ، وقيل شجرة الشوك ، وقيل الطحلب ، وقيل : الكمأة ، وقيل كل شجرة لا يطيب لها ثمر ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها شجرة لم تخلق على الأرض.

والمقصود التشبيه بما اعتبر به تلك النعنوت ، وقال ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة جامعة لتلك الأوصاف . وفي رواية عن الحبر أيضا تفسير هذه الشجرة بالكافر.

وقد ذكر عن رسول الله ﷺ بتصحيح قول من قال الحنظلة خبر ، فإن صح فلا قول يجوز أن يقال غيره ، وإلا فإنها شجرة بالصفة التي وصفها الله بها ، ذكر الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ حديثنا سوار بن عبدالله بسنده عن شعيب ابن الحبحاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : " ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، قال : هي الحنظلة وعقب عليه الخازن بقوله : أخرجه الترمذي مرفوعا

وموقوفا ، وقال : الموقوف أصح، وأشار إليه القرطبي ، وذكر الحديث ، ونقل عن السهيلي إنكاره أنها شجرة جوز الهند.

الصفات المتقابلة للشجرتين : هذه الشجرة الخبيثة وهي مثل الشرك والكفر بالله والجهل به لها صفات ثلاث تضمنتها الآية الكريمة ، فوصفت أولا الشجرة بأنها خبيثة ، وثانيها بأنها اجتثت من فوق الأرض ، وثالثها بأنها ما لها من قرار ، وأسلوب المقابلة هنا واضح كل الوضوح بين الآيتين وبين المثلين.

فالأولى طيبة والثانية خبيثة ، والأولى أصلها ثابت ، والثانية اجتثت من فوق الأرض، والأولى فرعها في السماء ، وهذا ترتب على أصلها الثابت ، والثانية ما لها من قرار لأنه لا أصل لها حتى تمتد فروعها إلى السماء.

ويقول الفخر الرازي عن هذه الآية : واعلم أن هذا المثال في وصفه الكلمة الخبيثة في غاية الكمال ، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة وخالية من كل المنافع ، أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة بقوله : (خبيثة) ، وأما كونها خالية من كل المنافع فإليه الإشارة بقوله : (اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار).

وعما تحمله كل من الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة من مشهد ، يقول الشيخ سيد قطب في كتابه "في ظلال القرآن" : هو مشهد مأخوذ من جو السياق ، ومن قصة النبيين، ومصير هؤلاء ، بوجه خاص .. ثم يقول عن الكلمة الطيبة وهي كلمة الحق ، كالشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة، ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان ، وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان.

ويقول عن الكلمة الخبيثة : كلمة الباطل كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك ، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى كأنها على وجه الأرض ، وما هي إلا فترة ثم تُجْتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء ، ثم يقول : ليس هذا مجرد مثل يضرب وإنما هو واقع الحياة ولو أبطأ في بعض الأحيان.

وعن تصوير هذا المثل بقسميه يقول الفقهاء إن صورة الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .. حيث شبهت الأولى بشجرة طيبة ثبت أصلها وسمق فرعها ، وبسق ثمرها ، ودنا أكلها كل حين بإذن ربها ، وشبهت الثانية بشجرة خبيثة مؤذية اتجهت الهمم إليها ، وتجمعت القوى عليها .. فاستأصلوا شأفتها ، واقتطعوا جذورها وطهروا الأرض منها .. فضاعت وانتهت ، وخربت ودمرت ، ومضى بها الزمن إلى غير قرار.

وهذا التصوير لكل من المثلين يحبب في الأولى ويبغض في الثانية ، والقلوب مجبولة على حب ما فيه النفع وبُغض ما فيه الضر .. إضافة إلى أنه صور الأمر المعقول فجعله مشاهدا.

فصورة كلمة الحق طيبة ، وكلمة الباطل خبيثة ، فجعل الأولى كالشجرة الحسنة المثمرة المظلة النافعة الراسخة السامقة تسخو بثمرها في حينه فإذن الله ، وأما الثانية فإنها كالشجرة القبيحة الكريهة التي استؤصلت من مكانها ، فلا حياة فيها ولا رعاية لها ، ولا نفع منها ، كذلك التوحيد يعمر قلب المؤمن .. وكذلك الشرك فإنه باطل وقبيح.

الكافر أعمى أصم والمؤمن سميع بصير

يقول تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) (هود : ٢٤).

وعن الآية يقول الشيخ محمد علي الصابوني : عرضت السورة الكريمة لعناصر الدعوة الإسلامية وهي " التوحيد ، والرسالة ، والبعث " عن طريق الحجج العقلية مع الموازنة بين الفريقين : فريق الهدى ، وفريق الضلال ، وبين الحجج العقلية مع الموازنة بين الفريقين : فريق الهدى ، وفريق الضلال ، وبين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه ، وضرت مثلا للفريقين يتضح بهما الفارق الكبير بين الهدى والضلال ، كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ، وبين الأعمى والبصير ، ثم ذكر الآية التي معنا.

ويرى الشوكاني أن هذا المثل ضرب للفريقين وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، على أن كل فريق شبه بشيئين ، أو شبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمي والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو في "والأصم" ، وفي "والسميع" لعطف الصفة على الصفة ، كما في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام

والاستفهام في قوله : (هل يستويان) للإنكار : يعني الفريقين ، وهذه الجملة مقررة لما تقدم من قوله (أفمن كان على بينة من ربه) وانتصاب مثلا على التمييز من فاعل يستويان ، أي يستويان حالا وصفة : (أفلا تذكرون) في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تذكر ، وعنده تفكر وتأمل ، ... والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين.

ويورد الطبري رواية أسندها إلى قتادة توضيحا لهذه الآية قال : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصم عن الحق فلا يسمعه وعمي عنه فلا يبصره ، وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به وأبصره فوعاه وحفظه وعمل به.

يقول تعالى : (هل يستويان مثلا) يقول هل يستوي هذان الفريقان على اختلاف حالتيهما في أنفسهما عندكم أيها الناس فإنهما لا يستويان عندكم ، فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله . (أفلا تذكرون) يقول جل ثناؤه أفلا تعتبرون أيها الناس وتتفكرون فتعلموا حقيقة اختلاف أمريهما فتنزجروا عما أنتم عليه من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان ، فالأعمى والأصم والبصير والسميع في اللفظ أربعة ، وفي المعنى اثنان ، ولذلك قيل : (هل يستويان مثلا؟).

وقيل كالأعمى والأصم ، والمعنى : كالأعمى الأصم ، وكذلك قيل والبصير والسميع والمعنى : البصير السميع كقول القائل : قام الظريف والعاقل وهو ينعت بذلك شخصاً واحداً.

وهذا الكلام يوهم ظاهره أنه جاء على غير طريق البلاغة لعدم ائتلاف اللفظ بالمعنى، وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله ابن أبي الإصبع في مثل الكفار الذي ورد في سورة البقرة هو قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) ، وأن هذا جاء من القسم الذي يوهم ظاهره أن الكلام قلب فيه على وجه لغير فائدة ، وفي القسم المقابل له قال ابن أبي الإصبع : وأما القسم الذي يوهم ظاهره أن نظام الكلام جاء على غير طريق البلاغة لكون لفظه غير مؤتلف بمعناه ، لما ترى بين الألفاظ من سوء الحوار لعدم الملاءمة ، وإذا تؤمل حق التأمل ، وجد جارياً على منهج البلاغة ، بحيث لو

جاء على ما توهمه المعترض لكان النظم معيباً ، قوله تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع هل يستويان ؟).

فإن العارف لظاهر نظم الكلام وتهذيبه دون باطنه ، يرى أن نظم هذه الآية قد أتى على غير طريق البلاغة ، فإن طريق البلاغة أن يقال : كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، ليلائم بعض الألفاظ بعضا ، فتأتلف بمعانيها ويأتي في كل جملة من الجملتين طباق لفظي ، والأمر على خلاف ما توهمه ، لأن في الكلام على الترتيب الذي جاء عليه تصحيح المعنى ، وفيه على ما توهمه المتوهم فساد المعنى : وذلك أنه سبحانه قال : (مثل الفريقين) فاقتضى الفريقان تفسيرهما فقال كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، ليكون المشبه به قسمين ، وليكون المشبه وفق عدد الفريقين ، أحد القسمين مبتلى ، والآخر معافى ، ليضاد بين القسمين حتى يصح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما من باب تجاهل العارف للسؤال عن معلوم ، لقصد التوبيخ ، لو قيل كالأعمى والبصير لكانت هذه الجملة فريقين ، ثم يعود فيقول : والأصم والسميع ، فتكون الجملة الأخرى فريقين آخرين ، فيكون قد فسر الفريقان بأربعة ، وهذا فساد ظاهر ، فلذلك عدل من الملاءمة ظاهر الكلام الى ما هو أهم منها ، وهو تصحيح المعنى المراد ".

ومن يقرأ هذه الآية يحس لأول وهلة أنها قد أتت على غير طريق البلاغة ، وأن نظمها غير مستقيم لأن البلاغة تقتضي ، أن يقال كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، ليلائم بعض الألفاظ بعضا فتأتلف معانيها ، ويأتي في كل جملة من الجملتين طباق لفظي ، ولكن الأمر على خلاف ما توهمه المتوهم فساد المعنى ، وذلك أنه – سبحانه – قال : مثل الفريقين فاقتضى "الفريقين" تفسيرهما فقال : كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ،

لكون المشبه به قسمين وليكون المشبه وفق عدد الفريقين ، أحد القسمين مبتلى ، والآخر معافى ليضاد بين القسمين حتى يصبح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما من باب تجاهل العارف للسؤال عن معلوم ، لقصد التوبيخ ، ولو قيل كالأعمى والبصير لكانت هذه الجملة فريقين ، ثم يعود فيقول : والأصم والسميع ، فتكون الجملة الأخرى فريقين آخرين فيكون قد فسر الفريقين بأربعة ، وهذا فساد ظاهر ، فلذلك عدل عن الملاءمة في ظاهر الكلام إلى ما هو أهم منها وهو تصحيح المعنى المراد.

والألوسي قال عن هذه الآية : فهناك تشبيهان : الأول تشبيه حال الكفرة الموصوفين بالتعامي والتصام عن آيات الله تعالى بحال من خلق أعمى أصم لا تنفعه عبارة ولا إشارة ، والثاني تشبيه حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات فانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم.

ثم قال : ويحتمل أن يكون هناك أربعة تشبيهات بأن يعتبر حال كل من الفريقين الفريق الكافر والفريق المؤمن بحال اثنين ، أي مثل الفريق الكافر كالأعمى ، ومثله أيضا كالأصم ، ومثل الفريق المؤمن كالبصير ، ومثله أيضا كالسميع ، وقد يعتبر تنويع كل من الفريقين إلى نوعين فيشبه نوعاً من الكفار بالأعمى ، ونوعا منم بالأصم ، ويشبه نوعا من المؤمنين بالبصير ونوعا منهم بالسميع، واستبعد ذلك ؛ إذا تقسيم الكفار إلى مشبه بالأول ومشبه بالثاني ، وكذلك المؤمنون غير مقصود البتة بدليل نظائره في الآيات الأخر.

وذكر السيوطي الرأيين ، أي أن الآية تضمنت تمثيل الكافرين بمثلين والمؤمنين بمثلين ، ثم قال : ولعطف الصفات ، فهو على تمثيل للمؤمن بمثال واحد ، وهو من جمع بين السمع والبصر ، وتمثيل للكافر بمثل واحد وهو من جمع بين العمي والصمم.

ولكن الزمخشري يقول : شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللف والطباق ، وفيه معنيان أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين ، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب وأن يشبهه بالذي جمع بين العمي والصمم ، أو الذي جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في والأصم ، وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة كقوله : الصابح فالقائم فالآيب (هل يستويان) يعنى الفريقين. (مثلا) تشبيها.

ولكن رأي الزمخشري قوبل بالاعتراض من صاحب كتاب "الانتصاف" الذي قال : "قال محمود شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو .. إلخ " . قال أحمد : بخلافها على الوجه الأول فإنها لعطف الموصوف على الموصوف وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين ، ففيه نظر ، فإن امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيها واحدا ، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الرطب واليابس تشبيها واحدا ، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين ، وإنما ينظر ببيت امرئ القيس على الوجه الثاني فإن مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيها واحدا ، ولكن في صفتين متعددتين والأمر في ذلك قريب والله أعلم.

وصاحب حاشية الشهاب يقول : إنه من التشبيه المركب من جانب المشبه به لا المشبه ، كما ينبني عليه لفظ المثل وهذا من بديع التشبيه .. وهذا الوجه آثره الطيبي رحمه الله تعالى والحق معه ولا نظر لقول صاحب الكشاف.

وذكر البيضاوي أنه من باب اللف والطباق، فيكون هنا عطف صفة على صفة ، وإلى هذا ذهب الغرناطي الذي قال : والواو لعطف الصفات ، فهو على هذا تمثيل للمؤمنين بمثال واحد ، وهو من جمع بين السمع والبصر ، وتمثيل للكفار بمثال واحد وهو من جمع العمي والصمم ، وذكر قبل هذا أنه تمثيل للمؤمنين بمثالين وتمثيل للكافرين بمثالين.

وقد مال إلى عطف الصفات أبو السعود ، وبين أنه الأدخل في المبالغة ، ولكن الشيخ رشيد رضا قال : شبه فريق الكافرين أولا بالأعمى في عدم استعمال بصره فيما يفضل به بصر الحيوان الأعجم ، من فهم آيات الله التي تزيده علما وعقلا وهدى روحيا ، ثم شبهه بالأصم كذلك بدليل عطفه على الأعمى ليتأمل كل تببيه وحده ، وأما قوله تعالى في المنافقين : (صم بكم عمي) (البقرة : ١٨) بدون عطف ، فالمراد به من أول وهلة : التهويل بجمعهم للنقائص الثلاث كلها دفعة واحدة ، فلم يبق في استعدادهم منفذ للهدى، ولذلك عطف عليه بفاء السببية في قوله في الآية : (فهم لا يرجعون).

ومن الإيجاز في الآية عطف هذه الصفات المتقابلة للفريقين ، وتركه للسامع والقارئ التوزيع والتفريق بين ما لكل منهما من التشبيهين المتضامين.

وإذا كان المثل قد صور الكافرين والمؤمنين ، هل ذكر قبل هذا المثل ما يفيد الحديث عن المؤمنين والكافرين قبله ؟ يجيب عن هذا الفخر الرازي فيقول : واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا ، فقيل : إنه راجع إلى من ذكر آخراً من المؤمنين والكافرين من قبل ، وقال آخرون بل يرجع إلى قوله : (أفمن كان على بينة من ربه) ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم.

وإذا كان الحديث عن المؤمنين والكافرين ، فكان المقتضى أن يكون القول : هل يستوون بدلاً من قوله تعالى : (هل يستويان) بالمثنى ؟ أجاب الفراء عن هذا بقوله : لم يقل هل يستوون لأن الأعمى والأصم فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر ، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن.

والفخر الرازى يذكر لنا وجه الشبه وهو أنه سبحانه خلق الإنسان مركبا من الجسد ومن النفس ، وكما أن للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر ، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيراً لا يهتدي إلى شيء من المصالح ، بل يكون كالقائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورا يهتدي به ولا يسمع صوتا ، فكذلك الجاهل الضال المضلل ، يكون أعمى وأصم القلب ، فيبقى في ظلمات الضلالات حائرا تائها.

لقد أراد الله ﷻ بضربه هذا المثل للكافر والمؤمن ، أن يصور هذا الأمر العقلي فجعله أمراً محسوساً ، فالكفر تتضح حقيقته عندما يصور هذا التصوير من العمي والصمم ، والإيمان تعرف حقيقته عندما يصور بهذا التصوير من البصر والسمع . فهذه الأمور الحسية التي صور بها كل من الكافر والمؤمن تجعل صورة كل من الكافر والمؤمن صورة لا تخفى على ذي عينين ، حتى يعرف الإنسان الهدى فيتبعه ، والضلال فيجتنبه . فما أبلغ تصوير القرآن الذي جعل صورة كل من الكافر والمؤمن أمراً حسياً كأنه مشاهد مرئي.

إن التصوير القرآني عرض حال الفريقين في صورة حسية مجسمة ، فمن منا لم ير الأعمى الذي لا يبصر طريقه ، والأصم الذي لا يسمع الصوت ولو كان عالياً ، فهذا هو الكافر عطل أدوات الهداية وسد على نفسه المنافذ ، فكان كهذين.

أما المؤمن فقد أبصر طريقه ، لأنه بصير وسمع صوت الهداية لأن أدوات الهداية مستعدة وقوية. فهل يستوي هذا وذاك ؟ بالبداهة لا . فما أجمل تعبير القرآن.

الكافر رجل أبكم والمؤمن
آمر بالعدل في سورة النحل

يقول تعالى : (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) (النحل : ٧٦).

وحول هذه الآية يقول القرطبي في تفسيره : هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن ، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى ، قاله قتادة وغيره ، وقال ابن عباس : الأبكم عبد لعثمان – ﷺ – وكان يعرض عليه الإسلام فأبى ويأمر بالعدل عثمان. وعنه أيضا أنه مثل لأبي بكر الصديق ومولى له كافر ، وقد أورد القرطبي عدة أقوال كل قول منها يختلف عن الآخر.

ويستطرد : لقد ضرب الله مثلا رجلين يختلف كل واحد منهما عن الآخر أحدهما أبكم وهو الأخرس وهذه صفاته ، ثم إنه لا يقدر على شيء متصف بالعجز ، ويا ليته يقوم بشئون نفسه بل هو كلٌّ على مولاه ، وليس من ورائه منفعة ، ففي أي مكان يرسله لا يعود منه بخير ولا يجلب خيراً – هذه صفات الأول – أما الثاني : فعلى العكس من هذا ، فهو ناطق وعنده القدرة والاستطاعة ، وليس عالة على أحد ، ولديه من حسن التصرف وإحسانه ما يجعله لبقا في تصرفاته ، فعندما يوكل إليه يعود بالخير ، ثم كان على بينة من أمره ، وهو وصفه بأنه على صراط مستقيم.

وقد رجح الطبري في المثل الأول أنه مثل للكافر وللمؤمن ، ولم يرتض أن يكون مثلا لله ، وقال : فلم يجز أن يكون ذلك لله مثلا إذ كان الله إنما هو الكافر الذي لا يقدر على شيء بأنه لم يرزقه رزقا ينفق منه سراً ومثلاً للمؤمن الذي وفقه الله لطاعته فهداه لرشده ،

فهو يعمل بما يرضاه الله كالحر الذي بسط له في الرزق فهو ينفق منه سراً وجهراً ، والله تعالى ذكره هو الرازق غير المرزوق، فغير جائز أن يمثل إفضاله وجوده بإنفاق المرزوق الرزق الحسن.

ورجح في المثل الثاني أنه للوثن والممثل بالأبكم ، ولله الذي يتصف بضد صفات الأبكم وهو على صراط مستقيم ، أما ابن القيم فقد رجح أن هذا المثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون من دونه أيضا ، وإن كان قد ذكر قولا ثانيا ، وهو أن المثل هنا كالمثل من الآية الأولى ضربه الله للمؤمن والكافر ، وقد أشار إلى هذين الرأيين البيضاوي ، ورجح الزمخشري الرأي الأول بأنه مثل ضرب لله ولنعمه وللأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، أما النيسابورى فقد وضح المقصود من المثلين فقال : والأصح أن المقصود من الآية الأولى كل عبد موصوف بالصفات الذميمة ، وكل حر موصوف بالخصال الحميدة ، ومن الآية الثانية كل رجل جاهل عاجز ، وكل من هو بضد ذلك من كونه شامل العلم كامل القدرة ، وليس إلا الله سبحانه ، فلذلك مدح نفسه بقوله : (ولله غيب السموات والأرض) أقوال في المراد.

واستعرض الرازي أقوالا في المراد. بهذا المثل فقال : " القول الأول : قال مجاهد : كل هذا مثل إله الخلق ، وما يدعى من دونه الباطل ، والقول الثاني : أن المراد من هذا الأبكم هو عبد لعثمان بن عفان ، أما القول الثالث : أن المقصور منه كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة ، وكل حر موصوف بتلك الصفات الحميدة " ، وهذا القول أولى من القول الأول ، لأن وصفه تعالى إياها بكونهما رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه إلى جهات المنافع ، وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط

مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى ، وأيضا فالمقصود تشبيه صورة بصورة في أمر من الأمور ، وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى.

وأوضح الرازي أن القول الثاني ضعيف أيضا ، لأن المقصور إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات المذكورة ، وذلك غير مختص بشخص معين ، بل أيما حصل التفاوت في الصفات المذكورة حصل المقصود ، فمعظم الروايات ذهبت إلى أن المثل الثاني بالذات قصد به ضرب مثل لله وللوثن ، وبعض الروايات هي التي ذهبت إلى أنها للمؤمن والكافر ، ويؤيد هذا ما قاله الحكيم الترمذي.

قال الرازي عن المثل الأول : ومثل الوثن الذي يعبدونه من دون الله كمثل عبد مملوك لا يقدر على دانق ولا حبة قوله تعالى : (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ..) ، قال : فكيف سويتموه بي وأنا الرازق أنفق عليكم ؟ ، وضرب مثلا آخر ، فقال : (ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم ..) ، كيف عدلتموه بي في العبادة وأنا لست بأبكم ، خلفتكم بكلمة واحدة ؟ ، ففي المثلين ذهب إلى أن المقصود منهما ضرب مثل لله وللوثن.

ويقول ابن القيم : وأما المثل الثاني ، فهو مثل ضربه الله سبحانه لنفسه وما يعبدون من دونه أيضا، فالصنم من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة ، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، وأنه سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد.

نفى الشرك بالله

ويقول الشيخ خلف الحسيني عن المثل الثاني : إنه شبيه بمعنى المثل الأول في أن المراد نفي الشرك بالله ، ونفي التسوية بين الله القادر على كل شيء وبين الأصنام العاجزة عن كل شيء.

ويضيف : لكن بين الأسلوبين في التصوير من الروعة والتأثير في القلوب ما يبهر الألباب ، ويثير الانتباه والإعجاب ، ففي هذا المثل يشبه القرآن الصنم بالرجل الأبكم ، وهو الذي ولد أخرس عاجز عن النطق لا يقدر على شيء ، يعني ليس له قدرة ما ، بل هو كل أي حمل وثقل على وليه ، وهو وبال على صاحبه أينما يوجهه صاحبه لا يأتي بخير، لأنه لا يقدر على النطق ، ولا يفهم ما يقال له ، ولا يفهم أحد منه شيئا ، وشبه الله العظيم القادر العادل بالرجل الموصوف بالعدل وجميع الفضائل القادر على إشاعة العدل بين الناس واقتناعهم بالمنطق القويم ، والقول السديد وهو في نفسه قدوة حسنة للناس لأنه على صراط مستقيم.

والمقصود من هذين المثلين هو إبطال الشرك بالله القادر على كل شيء.

ويعتبر الشيخ محمد أبو زهرة ان المثلين من قبيل الأمثلة التي تساق مساق الدليل ، ثم ذكر الآيتين وربط بينهما وبين الآيات قبلهما ، ثم قال : جاء بهذين المثلين ، وهما يبطلان عقيدة الشرك ، وزعم المشركين بأمثلة تقع في الحياة ، والحكم فيها من البديهيات التي لا ينكرها عاقل ، ولا يختلف فيها فكر عن فكر ، وكل من المثلين دليل قائم بذاته على بطلان الوثنية ، إذ فيه تسوية بين من لا يقع بينهما التساوي ، وتحدث عن المثل الأول وعقد مقارنة بين العبد الذي لا يقدر وبين الرجل المرزوق ، وبين أنهما لا يتساويان ، فكيف بتسويتهما بين الله والأوثان ؟ ثم وضح أن ذلك برهان قوي على بطلان الشرك

كله، وتحدث عن المثل الثانى وبين أنه في هذا المثل تنتفي المساواة بداية ، فهل يتساويان ؟ فالأولى بالعبادة خالق الكون لا هذه الأصنام.

ويذكر أن الله أراد بهذين المثلين إبطال عقيدة الشرك وضرب هذين المثلين من واقعهم حتى يظهر الأمر من بينة ، فصور لهم الأمر المعقول بشيء يرى من واقع الحياة ، فإذا ما عرفوا أنه لا يمكن التساوي بين الرجلين العبد والسيد ، والأبكم والناطق ، عرفوا أن عبادتهم الأصنام إنما هي خرافة، وعمل عابث ، والأولى بهم أن يتجهوا إلى الله مالك الكون كله المتصف بكل كمال ، وأن يتعدوا عن عبادة الذي لا يملك نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتاً، ومعنى عملهم هذا إلغاء للعقل والفكر. فهل هذا يدل على إنسانية رشيدة ؟

ويضيف : كان التصوير رائعا لأنه كان حجة ملزمة ودليلاً مقتعها وبرهانا ساطعا ، فماذا يبتغون بعد هذا التمثيل الذي بلغ من الدقة في التصوير ، والروعة في الأداء ؟ إنه القرآن النازل من رب الأرض والسماء ، الذي يعلم كيف تخاطب النفوس وكيف تقنع العقول والأفكار.

الكلام الحسن كالشجر الطيب

يقول الله تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) (إبراهيم : ٢٤-٢٥).

فالكلمة الطيبة هي معرفة الله تعالى واتباع أمره والسير على هداه ، وهي باقية ما دامت السموات والأرض ، قوية الجذور ثابتة الأصول ، مرتفعة الأعلام ، قوية الهامات ، وحتى تقترب هذه الكلمة الطيبة الخالدة من نفوس البشر ، مثلت بشجرة طيبة في الهيئة ، في المظهر والمخبر ، في النتيجة : وهذا المثل ساقه القرآن بعد الحديث عن أحوال الناس في الآخرة، فريق في الجنة ، وفريق في السعير ؛ فالكافرون لهم العذاب الأليم ، والمؤمنون لهم النعيم المقيم . فجاء هذا المثل الذي يوضح أثر الكلمة الطيبة وتبعه المثل الآخر الذي بين الكلمة الخبيثة وعقباها.

يقول الرازي موضحا معالم المثل : أعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربع، ثم شبه الكلمة الطيبة بها ، فالصفة الأولى لتلك الشجرة كونها طيبة ، وذلك يحتمل أموراً ، أحدها : كونها طيبة المنظر والصورة والشكل ، وثانيها : كونها طيبة الرائحة ، وثالثها : كونها طيبة الثمرة يعنى أن الفواكة المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة ، ورابعها : كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ، ويجب حمل قوله : شجرة طيبة ، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والصفة الثانية قوله : (أصلها ثابت) ، أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء . فهو

وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا إنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنه باق دئم لا يزول ولا ينقضي ، فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والصفة الثالثة قوله : (وفرعها في السماء) وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين : الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، والثاني : أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كان بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية ، فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

الصفة الرابعة قوله : (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) ، والمراد : أن الشجرة كانت موصوفة بهذه الصفة . وهي أن ثمراتها لابد أن تكون حاضرة دائما في كل الأوقات ، ولا تكون مثل الأشجار التي تكون ثمارها حاضرة.

في بعض الأوقات دون بعض . فهذا شرح هذه الشجرة التي ذكرها الله في هذا الكتاب الكريم ، ثم يقول الرازي : إذا عرفت هذا فنقول : معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع.

ثم شرح هذه الصفات وربطها بمبادئ العقيدة والشريعة الإسلامية.

ثم ذكر رأيا آخر قال فيه : وذكر بعضهم في تقدير هذا المثال كلاما لا بأس به .. فقال : إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة ، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة ، إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية . كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة في القلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان.

وفي ختام شرحه لهذه الصفات علق الرازي على قول الحق سبحانه : (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) ، فقال : والمعنى : أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم ، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة ، وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب.

وابن القيم يورد لهذا المثل تفسيرات ثالثة ويبين صفة التشبيه ويرجح رأيا منها لوضوح التشبيه وظهوره فيقول عقب آية مثل الكلمة الطيبة ، فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح ، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع ، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون : الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله ، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ، فكل عمل صالح مُرض لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا الله في قلب المؤمن وفرعها في السماء ، يقول : يرفع بها علم المؤمن إلى السماء .

وقال الربيع بن أنس : كلمة طيبة هذا مثل الإيمان ، فالإيمان الشجرة الطيبة ، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه ، وفرعها في السماء خشية الله ، والشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن ، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد بالقلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين ، سوبين مطابقة هذا التشبيه بحال المؤمن فيقول : وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ، ثم تحدث الربيع بن أنس عن أثر التوحيد في عبادة الإنسان وسلوكه وخلقه.

لكن من هو المقصود بالمثل ؟

يجيب عن هذا ابن القيم فيقول : " والمقصود بالمثل : المؤمن والنخلة مشبه به وهو مشبه بها ، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة ، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك ، ومن قال من السلف إنها شجرة في الجنة ، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

وقد اختلفت الآراء في نوع الشجرة هذه أهي النخلة أو غيرها ؟

يذكر الطبري عدة روايات تؤيد أنها النخلة ثم ذكر قولا لآخرين بأنها شجرة في الجنة، ولكنه رجح أنها النخلة ، وقال : وأولى القولين بالصواب في ذلك قول من قال هي النخلة لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ للحديث الذي رواه ابن عمر وذكره من عدة طرق وبإسنادات مختلفة ، ونصه كما جاء في صحيح مسلم واللفظ ليحيى بإسناده عن عبدالله بن دينار أنه سمع عبدالله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟) ، فوقع الناس في شجر البوادى . قال عبدالله : ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ، قال : (هي النخلة) ، قال : فذكرت ذلك لعمر قال : لأن تكون قلت هي النخلة أحب إليّ من كذا وكذا . (وقد روى مسلم هذا الحديث بروايات أخرى كما رواه البخاري والترمذي).

وذكر النيسابوري أن الشجرة الطيبة شجرة في الجنة وعن ابن عمر هي النخلة ثم قال: والشجرة: كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك.

وذكر الألوسي فيما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند ، وفي رواية ابن أبي حاتم أيضا أنها شجرة في الجنة ، وقيل : كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك.

ولكن النيسابوري يقول بعد الروايات التي ذكرها في (الشجرة الطيبة) : وقيل لا حاجة بنا إلى تعيين تلك الشجرة ، والمراد أن الشجرة الموصوفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وادخارها لنفسه سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن.

والألوسي رجح رأي الطبري للحديث الصحيح عن ابن عمر أنها النخلة ، وقال : وأنت تعلم أنه إذ صح الحديث ولم يتأب حمل ما فيه على التمثيل لا ينبغي العدول عنه.

وابن القيم يقول : ومن السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليها حديث ابن عمر الصحيح ومنهم من قال : هي المؤمن نفسه واستدل لها بحديث عن ابن عباس . قال : يعني بالشجرة الطيبة المؤمن.

ولم يقتصر الخلاف على الشجرة الطيبة بل سرى إلى " الحين " في قوله تعالى (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها).

ذكر الطبرى عدة روايات بأسانيدها تبين معنى الحين فقال : واختلف أهل التأويل في معنى الحين الذي ذكره الله ﷻ في هذا الموضع ، فقال : تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، فقال بعضهم : معناها تؤتي أكلها كل غداة وعشية .. وعن ابن عباس : الحين قد يكون غدوة وعشية وقال آخرون : بكرة وعشية . وعن ابن عباس قال : يذكر الله كل ساعة من الليل والنهار ، وقال آخرون : معنى ذلك تؤتي أكلها كل ستة أشهر من بين صرامها إلى حملها.

وعن عكرمة أنه قال : سئلت عن رجل حلف ألا يصنع كذا وكذا إلى حين . فقلت: إن من الحين حينا يدرك ومن الحين حينا لا يدرك : (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) ، وذلك من حين تصرم النخلة إلى حين تطلع . وذلك ستة . وأورد عدة روايات تؤيد أن الحين ، ستة أشهر، وفي أخرى أنه سبعة أشهر أو سنة . وفي رواية أخرى عن عكرمة أنه قال عن الحين : إن من الحين حينا لا يدرك وهو قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر). وأما الذي يدرك فقوله : (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) ، فهو ما بين العام إلى العام المقبل وعن سعيد بن المسيب أن الحين شهران.

ثم يقول الطبري بعد عرضه هذه الروايات بأسانيدها : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عني بالحين في هذا الموضع غدوة وعشية ، وكل ساعة لأن الله تعالى ذكره ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كل حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلا ولا شك أن المؤمن يرفع له إلى الله في كل يوم صالح من العمل ، والقول لا في كل سنة أو في كل ستة أشهر أو في كل شهرين ، فإذا كان ذلك كذلك فلا شك أن المثل لا يكون خلافا للممثل به في المعنى ، وإذا كان ذلك كذلك كان بينا صحة ما قلنا.

وهنا يرد اعتراض : أي نخلة تؤتي أكلها في كل وقت أكل صيفا وشتاء ؟

ويجيب الطبري عن هذا الاعتراض فيقول : أما في الشتاء فإن الطلع في أكلها ، وأما في الصيف فالبلح والبسر والرطب والتمر وذلك كله من أكلها ، وقوله : (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) قال : يؤكل ثمرها في الشتاء والصيف ولعل هذا مما يؤيد الرأي الذي ذهب إليه الزجاج الذي قال : الحين والوقت طال أم قصر ، والمراد أنه ينتفع في وقت . وقال الغرناطي : الحين في اللغة وقت غير محدود ، وقد تقترن به مدة تحده.

ويقول العلماء عن وجه الحكمة في تمثيل الكلمة الطيبة أي الاخلاص بالنخلة حيث أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض.

الوجه الثاني : أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء كما قال تعالى : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء.

الوجه الثالث : أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت ، وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها.

الوجه الرابع : أن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر لأنها خلقت من فضلة طينة آدم ، وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر ، فإنه إذا قطع نبت ، وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلح الذكر.

الوجه الخامس : وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق ، لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم ، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب ، وقول باللسان وعمل بالأبدان.

المرابي مثله كمثل المجنون

يقول الله تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة : ٢٧٥)

ذكر الفقهاء أن هذه الآية في آيات الأمثال التي تكشف عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر ، ولم يرد ذكر هذا المثل في كتاب ابن القيم ولا في كتاب الترمذي ، لا من بعيد ولا من قريب ، رغم ذكره في العديد من الكتب الأخرى التي ألفها فقهاء العصر الحديث.

وأشار علماء البلاغة إلى أنها من التشبيه المقلوب وأن الأصل أن يقال : إنما الربا مثل البيع ، فحدث قلب هنا ويعتبرونه من التشبيه البليغ ، حيث يشبه رب العزة في كتابه المجيد حال من يأكلون الربا كمن لا يقدرون على القيام بما ألم بهم من مس ناتج عن ضرب مبرح قام به الشيطان تجاههم وهم غير قادرين على رده.

ويعقب بعض فقهاء العصر الحديث على هذا المثل بقولهم : إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب، لا يقومون إلا كما الذي يتخبطه الشيطان من المس.

وما كان أي تهديد معنى ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة .. (صورة الممسوس المصروع) وهي صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة .

وهي وسيلة في التأثير التربوى ناجحة في مواضعها . بينما هي في الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة.

ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث، ولكن هذه الصورة — فيما نرى — واقعة بذاتها في هذه الأرض أيضا ، ثم إنها تتفق مع ما سيأتي بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله.

ويذكر كتاب "المنتخب في تفسير القرآن الكريم" في متناول شرحه لهذه الآية أن الله تعالى أراد من هذه الآية التأكيد على أن الذين يتعاملون بالربا لا يكونون في سعيهم وتصرفهم وسائر أحوالهم إلا في اضطراب وخلل كالذي أفسد الشيطان عقله فصار يتعثر من الجنون الذي أصابه ، لأنهم يزعمون أن البيع مثل الربا فيما أن كلا منهما فيه معاوضة وكسب.

فيجب أن يكون كلاهما حلالاً ، وقد رد الله عليهم زعمهم ، فبين لهم أن التحليل والتحريم ليسا من شأنهما ، وأن التماثل الذي زعموه ليس صادقاً ، والله قد أحل البيع وحرم الربا ، فمن جاءه أمر به بتحريم الربا واهتدى به ، فله ما أخذه من الربا قبل تحريمه ، وأمره موكول إلى عفو الله ، ومن عاد إلى التعامل بالربا باستحلاله بعد تحريمه ، فأولئك يلازمون النار خالدين فيها.

وقال الإمام ابن حنبل : الربا المذكور في الآية هو ربا الجاهلية وهو الزيادة في الديون في نظير الأجل وهو حرام في قليله وكثيره ، ولا يسع مسلما أن ينكره ، ويقابله ربا البيوع وهو ثابت بالسنة في قوله ﷺ: "البر بالبر مثل بمثل يداً بيد والشعير بالشعير مثلا بمثلا ويداً

بيد والذهب بالذهب مثلا بمثل يداً بيد والفضة بالفضة مثلا يدا بيد ، والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد فمن زاد او استزاد فقد أربى ".

وقد اتفق العلماء على تحريم الزيادة عن المبادلة مع اتحاد الجنس في هذه الأشياء وأباحوا الزيادة إذا اختلف الجنس ، ولكن حرموا التأجيل من هذه الأصناف ، فالربنا أمر محرم ومن يفعله على حب كتاب الله آثم وفاعل للمحرمات ، كالذي يضربه الشيطان ضرباً شديداً على غير نظام حتى يصاب المضروب بالجنون نظراً لإصراره على التعامل بالربا المحرم فعله.

كما يتضح أيضاً من التصوير القرآني عظم الجرم المرتكب والمتمثل في أكل الربا والإصرار عليه ، بالقول إنه متاجرة عادية كغيرها وليست محرمة ، وهذا ما يعد بدوره إصرار على فعل المعصية ، والمعروف أن الإصرار على فعل الصغيرة كبيرة في شريعة الإسلام ، فما بالك لو كان هذا الإصرار في أمر أجمع الفقهاء والعلماء على حرمته.

المرتد تائه لا يعلم تبعات ضلاله

يقول الله تعالى : (قل اندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) الآية (الأنعام : ٧١).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – ضرب الله تعالى في هذه الآية مثلا يتضح لمن عقله من المشركين ما تقرر فيها ، وفي الآيات قبلها من بينات التوحيد ودلائله ، ويظهر لهم سوء حالهم وقبح ما لهم في شركهم.

ثم يوضح المفسر بلاغة العبارة التي بدأت بها الآية ، إنها بينت علة الإنكار والتعجب في الاستفهام من خمسة أوجه وخلاصتها : أحدها : أن دعاء غير الله تعالى تحول وارتداد من دعاء القادر على كل شيء إلى العاجز الذي لا يقدر على شيء . ثانيها : أنه نكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء ، وهذا يدل على التحول المذموم . ثالثها : التعبير "نرد" المبني للمجهول بدل التعبير بنرتد أو نرجع والنكتة فيه أن هذا التحول المذموم ليس من شأنه أن يقع من عاقل .. رابعها : أن من أنقذه الله من الضلالة وهداه إلى الصراط المستقيم السوي فمن يقدر أن يضله بعد إذ هداه الله . خامسها : المثل الذي يصور المرتد في أقبح حالة كانت تتصورها العرب.

وذلك قوله تعالى : (كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران) .. لم يقول المفسر عن تقدير التشبيه : وتقدير لتشبيه في الكلام : أنرد على أعقابنا بعد تلك الهداية مثل ردِّ الذي استهوته الشياطين في الأرض أو مشبهين بالذي استهوته الشياطين .. إلخ ؟.

ويقول القرطبي : قال ابن عباس : أي مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه ، فيصبح وقد ألقته في مضلة ومهلكة ، فهو حائر في تلك المهامة ، وروي أن هذه الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر كان يدعو أباه إلى الكفر وكان أبواه والمسلمون يدعونه إلى الإسلام.

وفي كتاب "المنتخب في تفسير القرآن الكريم" يأتي شرح الآية بأنها أمر من رب العزة لرسوله الكريم ﷺ يأمره فيها بأن يقول لأولاد الكفار توبيخا لهم ، هل يصح أن يعبد غير الله ، مما لا يملك جلب نفع ، ولا دفع ضر ، وننتكس في الشرك بعد أن وفقنا الله تعالى إلى الإيمان ، وتكون كالذي غررت به الشياطين وأضلته في الأرض.

ومن ثم صار في حيرة لا يهتدي إلى الطريق المستقيم ، وله رفقة مهتدون يحاولون تخليصه من الضلال ، قائلين له : ارجع إلى طريقنا السوي ، فلا يستجيب لهم ، قال أيها النبي – ﷺ- : إن الإسلام هو الهدى والرشاد ، وما عداه ضلال ، وقد أمرنا الله بالانقياد له فهو خالق العالمين ورازقهم ومدير أمورهم.

وفي متناول تفسيره للآية يقول الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي – شيخ الجامع الأزهر – : قل يا رسول الله ﷺ إنه من غير المعقول أن نعبد غير الله من مختلف الآلهة التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً فنكون بذلك قد ارتدينا وانقلبنا على أعقابنا بعد أن أنعم الله تعالى علينا بنعة الإيمان التي لا تعلو عليها نعمة.

وبالتالي نكون قد رجعنا إلى الكفر ونكون كالذي حملته وأجبرته الشياطين على السير في الأرض وهو تائه حيران ، رغم وجود من يدعونه إلى الهدى للخلاص من هذا

الضلال الذي يجعله تائها حيرانا ، ولذلك فإن الله يؤكد في كتابه أن هداه فيه النجاح والفلاح والأمر لكل المسلمين أن يسلموا أمرهم لرب العزة.

ويتضح من قراءة الآية أن رب العزة يأمر رسول الله الكريم أن يوضح للناس الفائدة الجليلة التي تملكتهم بمجرد إيمانهم بالله مالك الملك وخالق السماوات والأرض وعالم الغيب والشهادة ، وذلك بعد تركهم لعبادة الأوثان والأصنام تلك التي كانوا يتخذوها آلهة وهي لا تقدر على نفع أو ضر لنفسها ، مشيرة الآية في مثلها أن من يرتد بعد الإيمان هو كمن حملته الشياطين على السير في أرض لا يعرف عنها شيء ولا يعلم معالمها التي تساعده على التحرك وسلك الدروب ، فهو محمول من الشياطين التي دفعته إلى الكفر بالله للسير تائها حيرانا ، لا يعلم ما ينتظره في ذلك المسلك الضال ، الذي حمل على السير فيه بردته وعودته الى الكفر بعد الإيمان والهوى ، وفي ذلك بيان وتوضيح لمدى الخسران الذي يصيب كل من كتب الله له الهدى واتبع هواه وارتد بعد إيمانه.

المشرك كمن يقع من السماء

يقول الله تعالى : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) (الحج : ٣١).

لقد صور الله المشرك بصورة ترتعد منها القلوب ، وتوجل منها الأفئدة ، وتلين منها الجلود ، إنه إنسان سقط من السماء ، ولم تترفق به الظروف ، وإنما عاجلته وباغتته ، ولم يرتطم بالأرض لتضم جسده وتحنو عليه ، وإنما تلقفه الطير وهو نازل من السماء ، فتناوشه من هنا وهناك ، فلم يدع به شيئا فحتى الأرض لم يكن له شرف الارتطام بها ، فهذه حالة، وحالة أخرى لا تقل عن الأولى ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق.

إن هذه التعبيرات تثير في النفس الهلع والفزع ، فالتعبير : (خر من السماء) ، (فتخطفه الطير) ، (أو تهوى به الريح في مكان سحيق) يوحي بالنهاية الأليمة والصورة المفجعة لمال المشرك يوم القيامة.

يقول الأستاذ عمر السلامي : إن الآية صورت من يشرك بالله بالذي يقع من السماء ، وهذا الوقع يتميز بسمة الخر ، فخر تؤدي معنى اضطراب وسقوط مع صوت ، فالخرير صوت الماء ، وعين خرارة وقد خرت تخر ويقال للرجل إذا اضطرب بطنه قد تخرخر، وخر إذا سقط ، إن ما تحدثه "خر" من صوت ، وما لدلالتها الحسية ومشتقاتها من نغمة خاصة ، تبعث الارتباك في الأعصاب والحواس ، إن المشترك وهو يخر تخطفه الطير ، أو تلوح به الريح في مكان سحيق ، ولئن كانت هذه الصورة قوية في مغزاها ووقعها ، فهي أشد حينما يستسلم المرء إلى شيطانه ويشرك بخالقه ، ويبتعد عن طريق التوحيد ، فيصبح مالكا هوى الشيطان ، بدل أن يكون كل شيء ملك نفسه.

ثم يقول في ختام حديثه عن هذه الآية : فقوة التصوير آتية من قوة المعنى وتصويره وقوة مفرداته ، وجرسها وإيقاعها في "خر" و "سحيق" ، قوة السرعة في اختطاف الطير لهم ، وقذف الريح لهم وتلويحهم ، إن جو الآية يوحي بقوة ضاغطة على النفس ، من أعلى إلى أسفل ، وتكاد تفتت كيانها ، يدرك هذا الإيحاء كل من يردد الآية ويقف عندها".

وهذه الآية تمثيل للمشرك بمن أهلك نفسه أشد الهلاك .

الإمام أبو السعود يقول عن هذه الآية : في الآية جاءت للتخير كما في "أو كصيب" ، أو للتنويع.

والتشبيه هنا كما يرى الزمخشري : إما أن تكون مركبا وإما ان يكون مفرقا أي متعددا، فعلى أنه تشبيه مركب يكون المعنى من أشرك بالله ، فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، قد صور حال المشرك بالله بصورة حال من خر من السماء ، فاختطفه الطير فتفرق أشلاء وقطعا في حواصلها ، أو بصورة حال من عصفت به الريح حتى هوت به في بعض الأغوار البعيدة والأعماق السحيقة ، ووجه الشبة الهلاك المتيقن أو المظنون.

وعلى أنه تشبيه مفرق يكون قد شبه الإيمان في علوه بالسماء وشبه الذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

وقد ذكر أبو السعود أن هذا التشبيه يجوز أن يكون من باب التشبيه المركب ، فيكون المعنى : ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا شبيها بهلاك أحد الهالكين.

وما أبلغ تشبيه المشرك بالساقط من السماء مع الأهواء التي تنتابه ونزعات الشيطان التي تتوزعه بالطير تأكل من جسمه ، ومع الشيطان يطرح به في مهاوي الضلال البعيدة الغور كالريح العاصف.

إن هذا المثل صور لنا المشرك في صورة رجل يهوى من السماء إلى الأرض ، وقبل أن يصل إليها تخطفته الطيور ، إن سلم منها هوت به الريح إلى مكان بعيد الغور لا يرى ، فهذا التصوير للمشرك بث في القلوب وجلا ، وفي الأفئدة خوفاً ، وفي النفوس اضطرابا ، فمن يرضى لنفسه أن يكون في هذا الوضع ؟ ومن يقبل أن يكون نهبا للطير أو ملقى به في العراء فضلا عن المكان السحيق ؟ لقد كان التصوير رائعا ومؤثرا.

إله الباطل وإله الحق

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) ، الآية : (الزمر ٢٩).

المثل الذي ضربه الله ﷻ في هذه الآية جاء لتوضيح حال من يعبد آلهة شتى فتوزعته الأهواء ، وبين من يعبد الله الواحد ، فلم تتناوشه الاضطرابات ولم تذهب به الخلافات هنا وهناك، وفقد جاء على صورة نقلت المعنوي إلى حسي وصيغ في قالب يهدي الحيران ، ويرشد الضال ، ولا يدع العاقل إلا أن يسلم بصحة عقيدة الإسلام ، ولنتدبر المثل ولننظر إليه بثاقب الفكر ولنتأمل المقارنة التي وردت في هذا المثل ، كيف كانت مقنعة؟

لقد أراد الله عز وجل أن يقرب إليهم عقيدة الوحدانية ويحببها إليهم ، فضرب المثل برجل من المماليك يملكه عدد من الشركاء وبين رجل مملوك يملكه واحد ، هل يستويان؟

لا يستويان أبداً ، فالأول مشتت الفكر بين مالكيه ، فهذا يأمره بكذا والآخر ينهاه عن كذا ، فلا يدري من يطيع ؟ ولمن يستجيب ؟ وأيهم ينفذ أمره ، فكان تائهاً واستولت عليه الحيرة ، وتسلطت عليه الأهواء فهو في اضطراب دائم ، ومهما حاول إرضاءهم فلن يفلح ، فلكل واحد منهم مشرب واتجاه ، فهو موضع تنازعهم ومشاكستهم.

أما الثاني : فهو ملك لرجل واحد ، وليس هناك عديد من الشركاء فيتنازعونه بينهم، وإنما يسمع كلام مالكه ، فيعرف كيف يرضيه ، وكيف ينفذ أمره ، لأنه لا يسمع كلاماً متضارباً ، ولا توجيهات مختلفة ، ولا أوامر متباينة ، أي هذين أسعد حالا ؟ أهذا الذي عاش فريسة لأهواء أصحابه ، فلم يعرف كيف يرضيهم ؟ ولا على أيهم يعتمد ؟ أم هذا الذي خلص لواحد ، فلم يكن عرضة للشقاق والخلاف والتشتت والتمزق بين الأهواء؟

لا شك أن الثاني الذي خلص لواحد سعيد ، هادئ البال ، مطمئن الفؤاد ، كذلك الذي عبد الله الواحد القهار ، أما الكافر فكان مثله كمثل هذا المملوك الذي تنازعته أهواء مالكيه ، فكانت حياته شقاء وتعاسة.

هذا التصوير القرآني الذي يقرب العقيدة الإسلامية في صورة حسية ، ويجعل المعقول محسوساً ، ويعطي لها من التصوير المشاهد والمتعارف بينهم يجعل المشرك بالله يحس بمدى صفاء العقيدة الإسلامية ونقائها.

ويقول الطبري عقب آية المثل : مثل الله مثلا للكافر بالله الذي يعبد آلهة شتى ، ويطيع جماعة من الشياطين ، والمؤمن الذي لا يعبد إلا الله الواحد ، فقد ضرب الله مثلا لهذا الكافر رجلا فيه شركاء يقول هو بين جماعة مالكين (متشاكسين) ، يعني مختلفين متنازعين سيئة أخلاقهم من قولهم ، رجل شكس إذا كان سيئ الخلق وكل واحد مهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه ، ورجلا سلما لرجل ، يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية.

وأضاف الطبرى إلى هذه الرواية روايات أخرى ، منها رواية عن مجاهد يفسر فيها قوله تعالى : (ورجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل) على القراءة الأخرى قال: هذا مثل إله الباطل وإله الحق.

ومنها رواية ابن عباس ﷺ قال : الشركاء المتشاكسون ، الرجل الذي يعبد آلهة شتى، كل قوم يعبدون إلهاً يرضونه ويكفرون بما سواه من الآلهة ، فضرب الله هذا المثل لهم ، وضرب لنفسه مثلا يقول رجل سلم لرجل يقول يعبدون إلهاً واحداً لا يختلفون فيه ، وبعد أن فرغ من هذه الروايات المدعمة بأسانيدها شرح لنا أسلوب المقارنة التي تطلب الحكم

وتتميز الغيث من السمين والباطل من الحق ، فقال عقب قوله تعالى : هل يستويان مثلا؟ يقول تعالى ذكره : هل يستوي مثل هذا الذى يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمته مع منازعته شركائه فيه ، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه منازع إذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه ، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه ، يقول : فأي هذين أحسن حالاً ، وأروح جسماً ، وأقل تعباً ونصباً؟

ويقول القرطبي موضحاً معنى قوله تعالى : (هل يستويان مثلاً) ؟ هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، لا يلقاه رجل إلا جره واستخدمه ، فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يرضى واحداً منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه أحد ، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعباً أو على هدى مستقيم.

أما الألوسي فإنه يوضح وجه البلاغة في هذه العبارة فيقول عقبها : إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وأكده ، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور ، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في لوم وعناء والآخر في راحة بال ورضاء.

وقد ورد التمييز هنا بالمفرد ولم يأت بالمثنى أو الجمع ، فقال مثلا : ولم يقل مثلين ، وإن كانت هناك قراءة جوزت مثلين ، كما أشار إلى هذا الزمخشري بقوله : (وقرئ : مثلين) وبين أنه بناء على هذه القراءة يكون الضمير في يستويان للمثلين لأن التقدير مثل رجل ومثل رجل ، والمعنى هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية كما تقول كفى بهما رجلين ، ومع هذا التخريج الذي خرجه الزمخشري إلا أنه أجاب عن سر التمييز بالمفرد ، فقال : وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس ، وقد أجاب الطبري عن هذا التساؤل

بقوله : لأنهما كلاهما ضربا مثلا واحداً ، فجرى المثل بالتوحيد كما قال جل ثناؤه : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ، إذ كان معناهما واحداً في الآية.

ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا قال : (الحمد لله) ، أي على إقامة الحجة عليهم.

ولابن القيم كلام نفيس في هذا المثل الذي اعتبره من أبلغ الأمثال ، فقد قال : هذا مثل ضربه الله للمشرك والموحد ، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون مشتاحنون ، والرجل المتشاكس : الضيق الخلق ، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شبه بمن يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين ، والموحد لما كان يعبد الله وحده ، فمثله كمثل عبد لرجل واحد ، قد سلم له وعلم مقاصده ، وعرف الطريق إلى رضاه ، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه ، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه ، مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليه لمصالحة ، فهل يستوي هذان العبدان .

وهذا من أبلغ الأمثال : فإن الخالص لمالك واحد ، يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ، ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

لقد جاء ختام آية المثل بتجريد هؤلاء المشركين عن العلم ، ولو كان عندكم مسكة من عقل ، أو لمحة من فهم لما عبدوا غير الله ، وهذا التصوير الذي تضمنه المثل لا يترك مندوحة لأي متنصل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

إن المثل كان موقظاً للفكر ، ومنبهاً للعقل ، وماذا بعد أن يصور لهم حال المشرك بصورة هذا العبد الذي اشترك في ملكيته جماعة ، وبين العبد الخالص لمالكه ؟ لا شك أن الأول موزع القلب مشتت الفكر ، لا يقدر على إرضاء أحد من مالكيه ، أما الثاني فليس مشتتاً ولا موزعا بين هذا وذاك.

إن المثل يجعل من الأعمى بصيراً ، ومن الأصم سميعاً ، ومن الغافل يقظاً فقد كان حجة ملزمة ، وهداية راشدة إلى عقيدة الوحدانية.

امرأة اختارت الدار قبل الجار

يقول الله تعالى : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) "التحريم : ١١".

هذا المثل الذي ضربه القرآن للمؤمنين بامرأة فرعون ، يمثل صورة من صور الاستعلاء والشموخ أمام مغريات الدنيا ، والمثل ضرب بامرأة ، ومعروف في المرأة أنها تتأثر بزخرف الحياة وتتعلق به ، فما بالك بمن أحاط بها البهرج من كل ناحية ! فالقصر المنيف تعيش فيه ، والخدم والحشم ، واللذة والمتاع ، ولن تجد امرأة أمتع من هذا المكان الذي تجد فيه ما تتمنى وما تشتهي . أمام كل هذا نجد امرأة فرعون تتمرد على كل هذا المتاع ، وتعتبره شراً ودنساً رغم المؤثرات الموجودة ، من مجتمع لا يؤمن بالله ، ومن مملكة تذعن لفرعون ، وحاشية تمجده ، ولكنها لا تخاف ولا تخشى ولا تمالئ ولا تنافق ، وإنما تعلق كلمة الإيمان عالية مدوية ، وتتبرأ من فرعون وطغمته الفاسدة ، والمجتمع آنذاك ملتف حوله ، ويسير خلفه ، ويسمع نداءه في وسط هذا الخضم من الكفر الباغي ، وأمام هذه القوى العاتية ، تعلن امرأة فرعون إيمانها متبرئة منه ومن قوته ، ضارعة إلى ربها تطلب جواره الآمن.

يقول الصابوني في متناول تفسيره للآية قال بعض العلماء تعليقا على قول الله تعالى: (إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) ما أحسن هذا الكلام ، فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت : (ابن لي عندك بيتا في الجنة) ، فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور.

ويشير الصابوني إلى قول الفقهاء : وها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون من طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة ، وتبرأت من صلتها بفرعون ، فسألت ربها النجاة منه ،

وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به : (ونجني من فرعون وعمله) ، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم : (ونجني من القوم الظالمين).

ثم يعقب على هذا بقوله : ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورها ، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي . ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ثم يضيف إلى هذا أنها اعتبرت هذا شر استعاذت بالله منه طالبة النجاة من هذا البلاء.

والقرآن لم يحفل هنا بذكر أسماء امرأتي نوح ولوط ، كما لم يتعرض لذكر اسم امرأة فرعون ، لأن العبرة ليست بالأشخاص ، وإنما العبرة بما يستفاد من المثل من هدف وتوجيه، فالحقيقة هي الحقيقة ، والأشخاص نماذج وصور معبرة عن هذه الحقيقة ، ولذلك لم يعن القرآن بمثل هذه الجزئيات التي لا يزيد ذكرها الحقيقة شيئا كما لن يضر عدم ذكره الحقيقة في شيء . وقد ذكر النيسابوري أن امرأة نوح اسمها واعلة وامرأة لوط اسمها واهلة ، وقد أيد هذا الرازي والغرناطي ، إلا أنه ذكر رواية أخرى تقول إن امرأة نوح والعة واسم امرأة لوط والهة ، ونظرة واحدة إلى الاسمين نراهما قد اتفقا في الحروف وإن كان فيهما قلب مكاني ، ولعل هذا يرجع إلى تصحيف الرواية أو اختلاف الرواة ، أما اسم امرأة فرعون فقد ذكر الزمخشري والرازي والنيسابوري أن اسمها آسية بنت مزاحم ، وقيل عمة موسى عليه السلام ، وقد أيد الرواية الأولى كل من الخازن والقرطبي ، وتبعهم الشيخ الصابوني.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله

يقول الله عز وجل : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله يهدي القوم الظالمين) (الجمعة : ٥).

يؤكد الفقهاء أنه مهما قيل غن غباء اليهود ، وبلادة حسهم وعنائهم في قراءة التوراة دون أن يفهموا منها ما ينبغي فهمه فلن يصل شيء من ذلك إلى قوة المثل الذي ضرب لهم في القرآن الكريم في هذه الآية ، فكما أن الحمار لا يجني من حمل الكتب والأسفار إلا الكد والتعب ، ولا رجاء أن يفهم شيئاً منهم ، فكذلك حال اليهود مع التوراة.

ويوضح الفقهاء الفرق بين كون المعنى يأتيك ممثلا وبين المعنى الذي لا يأتي ممثلا ، فالأول يحوجك إلى طلبه بالفكرة ويحرك الخاطر والهمة في طلبه ، فيكون موقعه في النفس أجل وألطف ، والثاني يأتي سهلا في صورة خبرية لا تعبر عن الشعور ، وهذا راجع إلى التشبيه الذي يشير إلى صلة بين أمرين من حيث موقعهما في النفس ، حتى يحس السامع بما أحس به المتكلم فينقل إليه شعوره ، ويدلل على هذا بإيراد نموذجين : نموذج خلا من التشبيه ، ونموذج تحلى بهذا التشبيه فيقول : تقول : ذاك رجل لا ينتفع بعلمه ، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل ، فإذا قلت : إنه كالحمار يحمل أسفاراً ، فقد وصفت لنا شعورك نحوه ودللت على احتقارك له ، وسخريتك منه ، وكان يمكن أن يقتصر على تشبيه اليهود بالحمار ، والحمار علم على البلادة والغباء ، ولكن المثل القرآني جاء في صورة بالغة من الدقة في الوصف الذي جاء مقيدا ، وهذا دليل على الخصائص التي انفرد بها التشبيه القرآني.

ومن خصائص التشبيه القرآني دقته ، فهو يصف ويقيد ، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، فقد يتراءى أنه يكفي في التشبيه أن يقال : "مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل ، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا والتحاما ، حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدري مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي جعل الصلة بينهما قوية وثيقة ، فالقرآن الكريم أورد المثل مقيداً بأوصاف ، فلم يقتصر على ذكر الحمار وحده ، وإن كان مثلا في الذم والتشنيع والشتيمة ، ومن استيحاشهم لذكر اسمه أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به ، فيقولون الطويل الأذنين كما يكنون عن الشيء المستقذر ، وقد عد من مساوئ الآداب أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم ذوي مروءة ، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً ، وإن بلغت به الرجلة الجهد . أ . هـ.

وإذا كان المثل هنا قد جرى على ضرب المثل بالحمار في الجهل ، فقد أورد القرآن الكريم مثلا آخر لصوت الحمار للدلالة على فظاعة صوته وبعده ، كما قال الله تعالى : (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (لقمان : ١٩) . وقد أشار إلى هذا الجاحظ فقال: هذا والحمار هو الذي ضرب به القرآن المثل في بعد الصوت ، وضرب به المثل في الجهل، فقال : (كمثل الحمار يحمل أسفارا) . فلو كان شيء من الحيوان أجهل بما في بطون الأسفار من الحمار ، لضرب الله المثل به دونه.

يوضح المفكر الإسلامي عمر السلامي معقبا على هذا المثل : إن الحمار يحمل أثقالا من الكتب، ولا يفقه ما فيها ، ويقاد إلى حيث قدر له ، وهو لا يشعر في ذلك إلا بالكد والتعب ، وإن سألته والأثقال فليس هناك من مجيب ، صورة تتحرك وتقاد ، غايتها في الحياة حمل الأثقال، وإشباع البطون ، وهي رهن الانقياد ، هذه الصورة تجسد حملة

التوراة ، وهو اليهود ، يدعون العلم ، ولا يفقهون ما بالتوراة ، وبالتوراة تبشير بالرسول محمد ﷺ، وتجسيد لصفاته ، وإذا وجهوا بحقيقة ذلك تنكروا وركبوا رؤوسهم وادعوا أنهم أعلم من غيرهم ، وأنهم لا يؤمنون بالرسول محمد ﷺكنبي وخاتم الأنبياء ، وهم بهذا العمل يصدق في حقهم هذا التعبير الفني في قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها)، بصيغة : "حملوا" المبنية للمجهول ، والمشددة في الميم ، والتي تحدث جرساً ونطقا ، يشعران بأنهم حملوا التوراة عن ثقل في أرواحهم ونفوسهم.

وإن هذا الثقل ليس مأتاه عدم حبهم في نزول كتاب سماوي عليهم ، وإنما مأتاه أنهم يودون ذلك تظاهراً لتحقيق مآربهم الشخصية ، فالتوراة تنص على أن محمدا ﷺ خاتم للأنبياء ، وفي هذا التنصيص — من وجهة نظر علماء اليهود — اغتصاب وهدر لمكانتهم ، مع أن الله هو الذي أنعم عليهم بذلك ، وهو القادر على كل شيء ، إن الآية دقيقة في تصوير كل أجزائها ، وهي تشير إلى غباء وحماقة اليهود ، وتوحي بالاحتقار والتوبيخ.

كذلك فإن الآية تفنناً في قوله تعالى : (.. حملوا التوراة ثم لم يحملوها) ، وهذا تعبير صادق عن نفوس اليهود المخزية ، وإن التصوير الحسي يستمد قوته من مادة الصورة المحسوسة ، ونوع هذه الصورة ومدى وقعها على النفس.

وهذا المثل القرآني يوضح لنا أن اليهود خالفوا التوراة ، لأنهم لم يؤمنوا بما جاء فيها ، فلم يعملوا ولم يمتثلوا ، فقط حفظوها عن ظهر قلب ، ولكنهم تركوا العمل بها ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : (حملوا التوراة ثم لم يحملوها) ، وهذا يوحي بالتناقض بين أقوالهم ، ومخالفة أعمالهم أقوالهم، فكأنهم لم يعرفوا شيئا ، وانقطعت صلتهم بها ، وقد وضح لنا الإمام السيوطي هذا بقوله : أي كلفوا العمل بها والقيام بأوامرها ونواهيها ، فلما لم يطبقوا أمرها ولم يعملوا بها شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ، ولا يدري ما فيها

، وهم أيضا حملوا التوراة ولم يحملوها، لأنها تنطق بنبوءة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن قرأها ولم يؤمن بها فقد خالف التوراة.

وقد أشار ابن القيم تلعيقا على هذا المثل قائلا : فقاس من حمله سبحانه كتابه ، ليؤمن به ويتدبره ، ويعمل به ، ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ، ولا اتباع له وتحكيم له ، وعمل بموجبه ؛ كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره.

وهنا يرد سؤال : لماذا استحق اليهود هذا الوصف ، وما هي الشبهة التي أودت بهم إلى هذا الوصف الذي جردهم من الآدمية والإنسانية ؟ وهل هذا الوصف خاص بهم أم يشمل من على شاكلتهم؟

بادئ ذي بدء لابد أن نعرف أن المثل الذي وصف اليهود بهذا الوصف جاء في سورة مدنية هي سورة الجمعة ، وقد بدأت آياتها بإثبات التوحيد لله ثم إثبات النبوة لرسول الإسلام محمد عليه السلام بقوله تعالى : (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ..) الآية ، فاليهود فهموا منها أن هذا الرسول للعرب خاصة وأنه لم يبعث إليهم ، وتناسى هؤلاء ما جاء في التوراة من الإيمان بهذا الرسول عندما يبعث ، وكان هذا كافياً ، ولكنهم أعرضوا عن العمل بالتوراة ، ولم يؤمنوا بهذا النبي عليه السلام ، ورددوا هذه الشبهة أنه نبي العرب وحدهم ، لذلك وجدنا رد القرآن عليهم في دحض شبهتهم بتصويرهم بصورة الحمار الذي يحمل أسفارا ثمينة من العلم ، ولا يلقى منها إلا التعب والمشقة ، هكذا حال اليهود في مخالفتهم التوراة ، بهذا فقد استحقوا هذا الوصف ، وهذه الشبهة مردودة عليهم بنص القرآن.

يقول الإمام الرازي : والمقصود منه (أي المثل) أنهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا الحمار ، لأنهم لو عملوا بمقتضاها لا نتفعوا بها ، ولم يوردوا تلك الشبهة ، وذلك لأن فيها نعت الرسول عليه السلام ، والبشارة بمقدمه ، والدخول في دينه.

أما هذا الوصف وإن كان قد أطلق عليهم فهو يشملهم ويشمل من أعرض عن آيات الله وكتابه، كما قال الفخر الرازي : وقال أهل المعاني : هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به ، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ، ولهذا قال ميمون بن مهران : يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية ، ويقول الزمخشري : وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله.

وأشار إلى هذا ابن القيم بقوله : فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ولم يؤد حقه ، ولم يرعه حق رعايته.

كما وضح هذا أحد الباحثين فقال : وفي مجال الحث على العمل بما في الكتب السماوية شبه الذين ينكرون لها ويقرأونها من غير تدبر ولا عمل بها ، ويتخلون عن رسالاتهم بالحمار الذي يحمل أثقالا من الكتب فوق ظهره ، وهو لا يفقه منها حرفا واحدا، فكلاهما في عدم المنفعة بالكتب سواء بسواء ، وفي ذلك تحذير للمسلمين من أن يقفوا من كتاب المولى تبارك وتعالى موقف اليهود من التوراة . ثم ذكر الآية.

ويوضح الفخر الرازي التشبيه الذي يفهم من قوله : (حملوا) ، فيقول : شبه اليهود إذ لم ينتفعوا بما في التوراة ، وهي دالة على الإيمان بمحمد ﷺ بالحمار الذي يحمل الكتب العلمية ولا يدري ما فيها.

أما قوله تعالى : (ثم لم يحملوها) ، أي لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها ، فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بحمار يحمل كتباً ، وليس له من ذلك إلا

ثقل الحمل من غير انتفاع بما يحمله ، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم.

ويقول الترمذي : شبه اليهود بالحمر لأنهم تحملوا دراسة التوراة وتركوا العمل بها ، فأتعبوا أبدانهم ولم ينتفعوا بها.

توهين العابد والمعبود من دون الله

يقول الله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مصل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) . (الحج : ٧٣ – ٧٤).

نداء عام للناس ، خوطب به مشركو مكة المعاصرون للرسالة الإسلامية أن يلتفوا إلى المثل الذي ضرب ، وأن يستمعوا له ، حتى يتبنوا ضلال عقيدتهم ، وخطأ تصرفهم ، فهذه الأوثان التي يدعونها من دون الله ، يضفون عليها مسحة الألوهية ليس في استطاعتها أن تخلق أحقر حشرة وهي الذبابة ، ولو تجمع عابدو الأوثان لمساعدة أوثانهم أن تخلق ذبابا ، ليس فى إمكانهم ، بل بلغ بهم الضعف والهوان ، أن الذباب لو حمل شيئاً فليس في استطاعتهم أن يستخلصوه منه ، وأن يأخذوه منه ، فالآلهة ضعيفة وذليلة وعابدوها عاجزون ، فكيف تستنقذ ، فضلا عن أن تخلق.

إن هذا المثل يتحدى الناس جميعاً منذ أن خلقوا وإلى يوم البعث ، أن يخلقوا مثل هذا المخلوق الضعيف ، بل إن يستردوا منه ما أخذه وما حمله ، فالطالب ضعيف والمطلوب كذلك ، فكيف يلغي الإنسان عقله ؟ ويبعد ما لا يملك ، وما لا يضر ولا ينفع ، ومن هو عاجز في منتهى العجز عن عابده لقد ضل سعى هؤلاء وخاب ، لأنهم لم يقدروا الله حق قدره ، وهو القوي العزيز.

إن العالم اليوم بلغ من التقدم العلمي شأناً كبيراً ، فقد صنع سفينة الفضاء ، وتوصل إلى القمر ، ومن قبل هذا الطائرات ، وأجهزة الإذاعات من مسموعة ومرئية ، إلى غير هذا من الآلات والمخترعات ، ولكنه أمام صفة الخلق عاجز تمام العجز ، فهؤلاء المخترعون والمكتشفون ، والذين وصلوا إلى الذروة والسنام في التفوق العلمي ، يستحيل عليهم أن

يخلقوا ذباباً ، وهو من الحشرات الضئيلة الحقيرة ، فالمثل يتحدى وإلى قيام الساعة ، أن يخلق ، بل إن يسترد ما أخذه الذباب ، أين العلماء الذين يتشدقون بعلمهم المادي ؟ وأين المخترعون ؟ إذا كنتم تظنون في أنفسكم القدرة والخلق والإيجاد ، فهذا هو الذباب ، لا نقول لكم اخلقوا مثله ، بل نردد ما ذكره القرآن من أسلوب ، يفضح تضاؤل الإنسان وعجزه أمام خلق الله ، بل أمام استرداد ما أخذه الذباب إنه مثل التحدي الأعظم القائم إلى يوم القيامة يبين عجز الإنسان قبل عجز الأوثان.

وطريق الكفار طريق فاسد ، غير واضح ، فلا منطق ولا عقل ، ولا فهم ولا وعي ، فالذي يعبد العاجز الذي لا يملك لنفسه فضلاً أن يملك لغيره ، يتخبط في الظلمات ، ويهوي إلى المفازات ، يحدثنا عن عقلية الكفار وطريقتهم الفاسد الشيخ عبد المتعال الصعيدي فيقول بعد أن شرح أسلوب القرآن في بيان طريق الكفار الفاسد ، ووعد الله لهم بالمصير السيئ فذكر أنهم يعبدون من دونه ما لا دليل لهم عليه من نقل أو عقل ، وينكرون ما يتلى عليهم من الأدلة الواضحة على أنه لا شريك له ، ثم ذكر من ذلك مثلا ضربه لهم، وهو أن الذين يدعونهم من دونه لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ومن يكون أضعف من الذباب لا يمكن أن يكون إلها.

وقد كان ضرب هذا المثل مثار استغراب من المشركين وغيرهم ، وقالوا : كيف يضرب الله الأمثال بالشيء الحقير ؟ فكان الرد عليهم في قوله تعالى : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها).

ونظرتهم إلى المثل الذي ضرب فيه الذباب مثلا على أنه مستبعد على الله أن يضرب المثل بذلك، جاءت من نظرتهم إلى الذباب على أنه ضعيف ، وغاب عن ذهنهم أن الله عز وجل يريد أن يضرب المثل بالضعف ، فكيف يستنكرون أن يضرب الله المثل به ، فهو

قياس فيه خطأ ، فالله عز وجل يريد أن يبين ضعف الآلهة التي يعبدونها وعجزها ، فيختار ما يؤدي الصورة المطلوبة ، ولكن غفلتهم وبلادتهم ، دفعتهم إلى الإنكار ، وهناك فرق بين المثل به والغرض من المثل ، يوضحه لنا الشيخ الراحل محمد متولى الشعراوي فيقول : الغرض من المثل توهين العابد والمعبود من دون الله .. إذن فما دام الغرض هو التوهين ، فكما ضرب المثل بالأضعف كان هو الأقوى في البيان.

ثم يوضح أن الذين أنكروا المثل لوجود لفظ الذباب لم يفهموا لماذا ضرب المثل.

ويقول الشيخ محمد متولى الشعراوي في هذا المثل : وفي هذا المثل تحد للبشرية كلها .. ذلك أن الله ﷻيقول لهم : إنكم وما تدعون من دون الله من آلهة أو من علم ارضى لن تخلقوا الذباب الذي تعتبرونه مخلوقاً تافهاً .. ولو اجتمعتم جميعاً .. ولقد كان هذا المثل في الماضي تحدياً بأن ما يشرك به الناس من أصنام وآلهة مزيفة عاجزة عن أن تخلق الحياة في أتفه الأشياء بالنسبة لنظرتهم على الأقل ، فهي لا تستطيع أن تهب الحياة لأحد ولو للذبابة .. ثم يتقدم الزمن وتتقدم الحضارات والعلوم والاختراعات .. ويصل الإنسان إلى القمر .. وقد يصل إلى المريخ والزهرة .. ويأتي العلم كل يوم باختراع مذهل لا تصدقه العقول .. وتسمع من يقول لك : لقد انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم .. وترد أنت عليهم بهذا المثل إن الله قد تحداكم أن تخلقوا الحياة .. لم يتحداكم بأن تخلقوا كوناً مثل الكون الذى خلقه الله ﷻ .. ولا شمساً تضيء ملايين السنين ولا نجوماً ولا قمراً.

ثم استعرض المظاهر الكونية والنعم الإلهية والإنسان كل هذا لم يتحداهم من أجل ذلك ، وقال : إنكم حتى لو اجتمعتم لن تفلحوا .. وكان التحدي للناس جميعاً على إطلاقهم ، ثم وضح أن الله تعالى هو الذي أوصل الإنسان إلى هذا العلم فكشف له عن

أسراره حتى وصل إلى ما وصل ، ولكنه حجب عنكم العلم الذي تحداكم فيه .. وهو خلق المادة الحية او خلق ذبابة.

ثم بين أن الله عندما يأمرنا بأن نستمع إلى هذا المثل لا يقصد عصراً بعينه ، وإنما معناه أن نستمع لهذا المثل في كل عصر وحتى قيام الساعة .. أي أنه لن يأتي عصر يستطيع الإنسان أن يخلق ذبابة مهما تقدم به العلم ومهما ارتقى.

ويقول : وحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء الدنيا كلها ولا معامل الدنيا كلها .. ولا أبحاث الدنيا كلها أن تخلق جناح ذبابة .. أو حتى خلية للمادة الحية.

يشير إلى أنه في هذه الآية إعجازاً كبيراً لأن الله يعلم أنه سيأتي بعض الناس بعد ألوف السنين ليقولوا : " انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم " .. فرد الله ﷻ عليهم قبل أن يقولوها ، وقد أشار إلى هذا المعنى محمد إسماعيل إبراهيم في كتابه " القرآن والإعجاز العلمي ".

ويستمر الشعراوي : ثم يمضي الله في تحقير الكافرين والمنافقين ويقول لهم : ربما كانت مسألة الذبابة هذه صعبة عليكم .. ولذلك فسأيسرها لكم إذا أخذ الذباب منكم شيئاً فاستعيدوه منه .. ثم يزيد الله في التحدي فيقول : وحتى هذا لن تستطيعوه (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه) ، أي أن الله ﷻ نزل بالتحدي من مرحلة الخلق إلى مرحلة استعادة ما يسلبه الذباب .. وقال : حتى هذه لن تستطيعوها.

ويواصل الشيخ الشعراوي حديثه : إن الله طلب منهم شيئا ضعيفا وعجزوا عن مقابلة هذا التحدي ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله ضعف الطالب والمطلوب.

وفي هذا المعنى تقول الراحلة د. " عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ " : ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم كتاب الإسلام هذا المثل ، نحو أربعة عشر قرناً من الزمان ارتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق ما ارتاد ، وتابع نضالة الباهر العجيب فى كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون إلى أن غزا الفضاء وأوشك أن يهبط على القمر.

وقد قدمت بنت الشاطئ لهذا المثل بقولها : ثم نزلت آية الحج المدنية ، فضربت للناس المثل الصادع ، وساقت البرهان المفحم ، : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب).

ويشير ابن قتيبة : وقوله : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) ، ثم قال : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) ، ولم يأت بالمثل لأن في الكلام معناه ، كأنه قال : يا أيها الناس ، مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذباباً فلم تقدر عليه ، وسلبها الذباب شيئاً فلم تستنقذه منه.

والزمخشري يورد اعتراضا آخر فيقول : فإن قلت : الذي جاء ليس بمثل فكيف سماه مثلا ؟

يجيب الزمخشري عن هذا بقوله : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة ، المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم ، أجاب الخازن على هذا السؤال بإجابة والزمخشري غير أنه أضاف إليها جوابا آخر : لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل كلام كان كذلك مثلا.

ويورد الطبري في هذا المعنى فيقول : قال الأخفش : إن قيل : فأين المثل الذي ذكر الله في قوله : (ضرب مثل) ؟ قيل : ليس ها هنا مثل والمعنى أن الله قال : ضرب لي مثل، أي شبه في الأوثان ، ثم قال : فاستمعوا لهذا المثل الذي جعلوه مثلي.

وقال القتيبي : ها هنا مثل لأنه ضرب مثل هؤلاء الذين يعبدون الأصنام بمن عبد من لا يخلق ذباباً ، وقيل معناه : أثبت حديثاً يتعجب منه ، فاستمعوا له لتقفوا على جهل الكفار ، من قولك ضربت خيمة ، أي نصبتها وأثبتها ، وقيل معناه : جعل ذلك كالشيء اللازم الثابت من قولك ضرب السلطان الجزية على أهل الذمة.

والتمثيل الذي جاء في الآية غريب لم يسبق ، وطريف في بابه ، فقد حوى معنى لم يسبق إليه أحد ، ولم يتبع فيه ، وقد ذكره ابن أبي الإصبع فى باب "سلامة الاختراع من الأتباع" ، وقال عنه : وهو أن يخترع الأول معنى لم يسبق إليه ولم يتبع فيه ، ثم ذكر مثلا لهذا وهو قوله تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً).

ثم أتبعها بقوله : فانظر إلى غرابة هذا التمثيل ، الذي تضمن الإفراط في المبالغة مع كونها جارية على الحق ، خارجة مخرج الصدق ، وذلك حين اقتصر سبحانه على ذكر أضعف المخلوقات وأقلها سلبا لما تسلبه ، وتعجيز كل من دون سبحانه كائنا من كان عن خلق مثله مع التضافر والاجتماع ، ثم نزل في التمثيل عن رتبة الخلق ، إذ هما مما يعجز عن مثلهما كل قادر غير الله عز وجل إلى استنقاذ النذر التفه الذي يسلبه هذا الخلق الضعيف على ضعفه ، ويعجز كل قادر من المخلوقين عن استنقاذه منه ، فتنقل في النزول في التمثيل على ما تقتضيه البلاغة على الترتيب في هذا المكان ، لما علم سبحانه أنه لا مبالغة في تعجيزهم عن الخلق والاختراع ، الذي لا يدعيه جبار ولا يتعاطاه من المخلوقين أحد ، وإن

أوتي قدرة وأعطى قوة ، وكان فيه من التعالي في الكفر والجهل ما يدعى معه الإلهية وينتحل الربوبية ، فتزل بهم إلى استنقاذ ما يسلبه هذا المخلوق الضعيف على ضعفه وقوتهم ليريهم عجزهم فتستيقنه نفوسهم ، وإن لم تقربه ألسنتهم ، فجاء بما يقضي الظاهر أنه أيسر من الخلق وهو في الحقيقة مثله في العسر ، فإن الظفر بنفس هذا المخلوق أيسر من الظفر بما يسلبه ، فاستنقاذ ما يسلبه في العجز عنه مثل خلقه ، ثم ختم كلامه بقوله : ولم يسمع مثل هذا المثيل في بابه لأحد قبل نزول القرآن العزيز ، ولم يتناوله متناول كما فعل في كثير من معاني الكتاب الكريم.

يحدثنا ابن القيم عن هذا المثل فيقول : حق على عبد أن يستمع لهذا المثل ويتدبره حق تدبره ، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه ، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره ، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه ، فكيف ما هو أكبر منه ، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب ، وإذا سلبهم الذباب شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه ، فيستنقذونه منه ، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات ، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما يسلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها ، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى ، ثم يقول : وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم ، والشهادة على أن الشياطين قد تتلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة.

هذا الشرك ، وهذه الوثنية التي جاءت نتيجة الضعف ، بكل معاني كلمة الضعف ، فلو كان المشركون عندهم مسكة عقل لما خضعوا لهذه الجمادات ، والدليل على هذا

الضعف أنها لو وضعت أمام أيسر الامتحانات لخفقت فيه ، هذه آلهة كما تزعمون فلتخلق ذبابة ، فلا تستطيع، فليخفف عنها الامتحان فلتنقذ ما سلبه منها الذباب ، فستعجز ، ولو اجتمعوا له في الحالين.

كما يقول د. محمد البهي : أي هم من الضعف في آحادهم وفي تجمعهم معاً ، بحيث لا يستطيعون أن يخلقوا أضعف مخلوق ترونه وهو الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، بل أزيد من أنهم لا يستطيعون خلق الذباب ، إنهم لا يستطيعون أن ينقذوا منه ما يكون قد استولى عليه مهم ، فليست لهم قدرة على الإيجاد ولا على الإنقاذ لشيء غلبوا عليه من مخلوق ضعيف كالذباب.

(ضعف الطالب والمطلوب) ، وإذن فهؤلاء الذين جعلوهم اندادا لله ضعاف في ذواتهم بالبرهان العملي ، وكذلك من يعبدونهم من هؤلاء الوثنيين ضعاف كذلك ، بدليل أنهم يعظمون من لا شأن له ، ومن يعظم من لا يعظم ضعيف في تصوره وتقديره ، وهذا الضعف يصوره المثل أبلغ تصوير ، ويعرضه في صورة أمام الأسماع والأبصار.

وكلمة الذباب أهي مفرد أم جمع ؟

يقول الطبري : والذباب واحد وجمعه في القلة أذبة ، وفي الكثرة ذبان نظير غراب يجمع في القلة أغربة ، وفي الكثرة غربان ، أما الألوسي فيقول : والذباب اسم جنس ويجمع على أذبة وذبان بكسر الذال فيهما.

وقد رجعت إلى لسان العرب فوجدته يقول : (والذباب الأسود الذي يكون في البيوت ، يسقط في الإناء والطعام ، الواحدة ذبابة ، ولا تقل ذبابة ، والذباب أيضاً :

النحل ، ولا يقال ذبابة في شيء من ذلك ، إلا أن أبا عبيدة روى عن الأحمر ذبابة ، هكذا وقع في كتاب "المصنف".

ثم قال : التهذيب : واحد الذبان ذباب بغير هاء قال : ولا يقال ذبابة ، وفي التنزيل العزيز : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً) ، فسروه للواحد ، والجمع أذبة في القلة مثل غراب وأغربة ، قال النابغة : ضرابة بالمشفر الأذبة وذبان مثل غربان ، وقد ذكر مسميات كثيرة لكلمة الذباب ، وكلام الطبري متفق مع ما جاء في لسان العرب.

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت

قال الله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا جعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (يونس : ٢٤).

لقد صور هذا المثل القرآني الحياة الدنيا وما فيها من بهجة وزينة ، وزخرف ومتاع بصورة تجمعت من عدة أمور . ثم لا تلبث هذه الدنيا أن تزول وكأن شيئاً لم يكن ، لقد مضى الزمن سريعاً ، وغفل الإنسان عن هذا الزمن فإذا بالدنيا العامرة تفنى ، وإذا بالزخرف يتبدد ، وإذا بالزنية تذهب.

والله عز وجل قصد بهذا التصوير ألا يركن الإنسان إلى الدنيا ، وألا يغتر بزخرفها العارض ، وألا يفتن ببهرجها ، حتى يتوجه إلى الله عز وجل ، وألا يكون عبداً لسواه ، لأن مدتها محدودة ، واللقاء بالله حتم ، فليست بدار خلود ولا بقاء ، وهي كما قال أحد الشعراء المعاصرين عن الدنيا :

إن الحيـــاة لثــوب ســوف تخلعــه وكـــــل ثـــوب إذا مـــا رث ينخلـــع

وهذه الدنيا ليست بدار قرار ، وهذه الصورة التي عرضها القرآن ، تمثل لنا مشهداً من مشاهد الحياة ، فمن منا لم ير النبات ، وقد غمره الماء ثم نما وترعرع وقوى ، ثم استوى على سوقه ، وتدلت منه الثمار اليانعة والخضروات الطازجة ، وهل بقي هذا على وضعه ؟ لقد مضى كما وميض البرق ، فأين الخضرة اليانعة التي كست الأرض بساطاً أخضر ؟ وأين

الثمار وأين الأشجار ؟ فهذه الصورة التي تمر أمام أعيننا ثم نبحث عنها في نهاية المطاف ، فلا نجد لها ثباتاً وبقاء ، هكذا الدنيا برغم زخرفها وزينتها لا تلبث أن تزول . وهذا تصوير يبعث في نفس المؤمن ، الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة ، وليس هذا من منطلق ذم الدنيا أو تحريم طيباتها ، وإنما ليعرف العاقل مصيرها فلا يحزن على ما فاته منها ولا تغره بمفاتنها . فما كانت الدنيا إلا مرحلة من مراحل عمر الإنسان : دنيا ثم موت ثم آخرة ، كما تقول الآيات التي تحدثت عن أطوار خلق الإنسان ، وما يعقب هذا . يقول الله ﷻ: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون).

والإسلام لا يقصد من وراء هذا التصوير أن يزهد في الدنيا للناس أو ببغضهم فيها ، وإنما يريد ألا يتعلقوا بها تعلق المتشبث ، المتمسك بعرضها ، وإنما يعيش عليها عيشة الغرباء أو عابري السبيل ، ومع هذا فلا يحرم نفسه من طيباتها ، فما خلق الله الدنيا لأناس وحرم منها آخرين ، كما تشير الآيات العديدة .. (ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق).

فالتمتع بالدنيا كما أمر الحق تبارك وتعالى ، ليس هو التكالب ولا الشر ولا الجشع ولا النهم، من هنا لم يحرم الله علينا التمتع بطيباتها ، وكيف ذلك وقد خلقنا وأودع فينا هذه الغرائز وهذه الشهوات ولابد من إشباع لهذه الغرائز وإطفاء لشعلة هذه الشهوات العارمة ، ولكن في نطاق الحلال والمباح ، ولهذا لم يحمد الإسلام من يحرم نفسه من الدنيا، كما لم يرض عن المتكالب عليها ، وطالب بالوسط بينهما كما أشار الحديث النبوي الذي يرويه أبو موسى الأشعري – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال : " من أحب دنياه أضر

بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى " . رواه أحمد ورواته ثقات.

والفخر الرازي يعلق على قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) ، فيقول : وهذا الكلام يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون المعنى فاختلط به نبات الأرض بسبب هذا الماء النازل من السماء ، وذلك لأنه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات ، وتكون تلك الأنواع مختلطة ، وهذا فيما لم يكن نابتاً قبل نزول المطر . الثاني : أن يكون المراد منه الذي نبت ، ولكنه لم يترعرع ، ولم يهتز، وإنما هو أول بروزه من الأرض ومبدأ حدوثه ، فإذا نزل المطر عليه ، واختلط بذلك المطر أي اتصل كل واحد منهما بالآخر اهتز ذلك النبات وربا وحسن ، وكل واكتسى كمال الرونق والزينة ، وهو المراد من قوله تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) ، وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء ، فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون ، وتزينت بجميع الألوان الممكنة للزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض.

ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه ، وبهذه الصفة ، فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه في الانتفاع به ، ويصير قلبه مستغرقا فيه ، ثم إنه تعالى يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة في ليل أو نهار من برد ، أو ريح أو سيل ، فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة كأنها ما حصلت البتة ، فلا شك أنه تعظم حسرة مالك ذلك البستان ويشتد حزنه ، فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها، فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها.

ويقول الطبري عن هذه الآية : إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها .. وأموالها مع ما قدر وكل بذلك مع التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت كمثل ماء أنزلناه من السماء ، وكمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض فاختلط به نبات الأرض ، فنبت بذلك المطر أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض ، وأيد هذا بما رواه عن ابن عباس رضي الله عنه.

ويرى الطبري أن الضمير في قوله تعالى : (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) كما يتبادر إلى الذهن عائد إلى الأرض ، ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يريد أن أهل تلك الأرض قادرون على حصادها وتحصيل ثمرتها.

ولكن الرازي يرى رأيا غير هذا فيقول : والتحقيق أن الضمير ، وإن كان في الظاهر عائداً إلى الأرض ، إلا أنه عائد إلى النبات الموجود في الأرض ، وابن كثير يقول : الذين زرعوها وغرسوها ، ويؤكد هذا بقوله مفسراً قوله تعالى : (قادرون عليها) ، أي على جذاذها وحصادها ، ومعنى قوله تعالى : (أتاها أمرنا) ، أي ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم كما قال الزمخشري ، ويذكر الرازي هنا معنيين هما : أحدهما ، (يريد عذابنا) كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنه، ثم يقول : والتحقيق أن المعنى أتاها أمرنا بهلاكها.

ومعنى قوله تعالى : (ليلا ونهارا) ، أي نزل بها في هذه الحال أمرنا المقدر لإهلاكها، بجائحة سماوية ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم غافلون ، ولعل المراد كما يقول الألوسي : الإشارة إلى أنه لا فرق فى إتيان العذاب بين زمن غفلتهم وزمن يقظتهم إذ لا يمنع منه مانع ولا يدفع عنه دافع.

لكن ما الذي تفيده كلمة " أو " في قوله تعالى : (ليلاً أو نهاراً) ؟ هل يفيد هذا اللفظ الشك أو الإبهام ، الإباحة أو التخيير ؟ لقد سبق لنا عند الحديث على ضوء هذا المثل في سورة البقرة : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) توضيح معنى كلمة " أو " ، والوجوه التي تستعمل فيما كلمة أو ، ومنها الشك . والشك محال على الله عز وجل ، فكيف تعبر الآية هنا (ليلاً أو نهاراً) بلفظ أو ؟.

شبهات وشهوات ما في القلوب

يقول الله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله وكذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) (الرعد : ١٧).

يقول الشوكاني : ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلا وأمر رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن يقول لهم فقال : (قل هل يستوي الأعمى والبصير) ، أي هل يستوي الأعمى في دينه وهو الكافر ، والبصير وهو الموحد ، فإن الأول جاهل لما يجب عليه ، وما يلزمه ، والثاني عالم بذلك ثم قال : (أم هل يستوي الظلمات والنور) ، والمراد بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، ثم ضرب سبحانه مثلا آخر للحق وذويه ، وللباطل ومنتحليه فقال : (أنزل من السماء ماء).

ويوضح الزركشي المثلين فيقول : وقد ضرب الله تعالى لما أنزل من الإيمان والقرآن مثلين ، مثله بالماء ، ومثله بالنار ، فمثله بالماء ما فيه من الحياة ، وبالنار لما فيه من النور والبيان ، ولهذا سماه الله روحا لما فيه من الحياة وسماه نورا لما فيه من الإنارة ، ففي سورة الرعد قد مثله بالماء فقال : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ..) ، فضرب الله الماء الذي نزل من السماء فتسيل الأودية بقدرها ، كذلك ما ينزله من العلم والإيمان فتأخذه القلوب كل قلب بقدره ، والسيل يحتمل زبداً رابيا كذلك ما في القلوب يحتمل شبهات وشهوات.

روى ابن أبي حاتم عن قتادة قال : هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد ، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينتفع به ولا ترجى بركته ، كذلك يضمحل الباطل عن أهله ، وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت ونمت بركته وأخرجت نباتها ، كذلك الذهب والفضة حين أدخل النار ، وذهب خبثه ، كذلك يبقى الحق لأهله ، وكما اضمحل خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل النار كذلك يضمحل الباطل عن أهله.

أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس قال : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وهو الشك ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، وهو اليقين ، كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك ، وأخرج عن عطاء ، قال: " هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر".

والسويطي في موضع آخر من كتابه " معترك الأقران " تحدث بإسهاب عن هذين المثلين فقال معقبا على هذه الآية : (كماء أنزلناه من السماء ..) : هذا مثل ضربه الله للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، فمثل الحق كالماء ينزل من السماء فتسيل به الأودية وتنتفع بها الأرض ، والذهب والفضة والصفر وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله بالزبد الذي يرمي به السيل ، وبزبد تلك المعادن التي يطفو فوقها إذا أذيبت، وليس في الزبد منفعة ، وليس له دوام.

وقال ابن العربي في قانون التأويل : ضربه الله مثلا للحق والباطل ، فإنه خلق الماء لحياة الأبدان، كما أنزل القرآن لحياة القلوب ، وضرب امتلاء الأوعية بالماء مثالاً لامتلاء

القلوب بالعلم ، وضرب الأودية الجامعة للماء مثالا للقلوب الجامعة للعلم . وضرب قدر الأودية في احتمال الماء ، بسعتها مثالا للقلوب الجامعة للعلم . وضرب قدر الأودية في احتمال الماء ، بسعتها وضيقها ، وصغرها وكبرها ، مثالا لقدر القلوب في انشراحها وضيقها بالحرج ، وضرب حمل السيل الحصيد والهشيم ، وما يجرى به وما يدفعه مثالا .. يدفعه القرآن من الجهالة والزيغ والشكوك ووساوس الشيطان ، وضرب استقرار الماء ومكثه لانتفاع الناس به في السقي والزراعة مثلا لمكث العلم واستقراره في القلوب للانتفاع به.

قال : هذا هو المثل الأول . وأما المثل الثاني فضرب فيما يوقد عليه النار بما في القرآن من فائدة العلم المنتفع به كالانتفاع بالمتاع ، وكما أن النار تميز الخبيث في هذه من الطيب ، كذلك القرآن إذا عرضت عليه العلوم يميز النافع فيها من الضار.

وللشريف الرضي رأي في هذا المثل فيقول بعد هذه الآية : وهذه استعارة ، ثم يشرح المراد بضرب الأمثال ، ويوضح أن المقصود به معنيان : أحدهما أن يكون أراد بضربها تسييرها في البلاد .. من قولهم : ضرب فلان في الأرض . إذا توغل فيها وأبعد في أقاصيها . ويقوم قوله تعالى : (يضرب الله الأمثال) مقام قوله : ضرب بها في البلاد.

والمعنى الآخر في ضرب المثل أن يكون المراد به نصبه للناس بالشهرة لتستدل عليه خواطرهم ، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم.

ويكون قوله سبحانه : (كذلك يضرب الله الحق والباطل) إلى هذا الوجه أي ينصب منارهما، ويوضح أعلامهما ، ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه ، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه .

وفي معرض البيان عن فائدة المثل وأنه يضرب لتقريب صورة الأشياء الخفية بصورة الأشياء الجلية المنظورة يوضح الفخر الرازي ما تضمنته هذه الآية من مثل يوضح حقيقة

الإيمان والكفر، والحق والباطل قائلا : أعلم أنه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير والظلمات والنور ، ضرب للإيمان والكفر مثلا آخر فقال : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) ، ومن حق الماء أن يستقر في الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها ، ومن حق الماء إذا زاد على قدر الأودية أن ينبسط على الأرض ، ومن حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه أن يتبدد في الأطراف ويبطل ، سواء كان ذلك الزبد ما يجرى مجرى الغليان من البياض ، أو ما يحفظ بالماء من الأجسام الخفيفة.

ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار . وذلك لأن كل واحد من الأجسام السبعة إذا أذيب بالنار لابتغاء حلية أو متاع آخر من الأمتعة التي لا يحتاج إليها في مصالح البيت ، فإنه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث، ولا ينتفع به ، بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص.

فالحاصل أن الوادي إذا جرى طفا عليه زبد ، وذلك الزبد يبطل ويبقي الماء والأجساد السبعة إذا أذيبت لأجل اتخاذ الحلي أو لأجل اتخاذ سائر الأمتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به ، فكذا ههنا . أنزل من السماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء وهو القرآن ، والأودية قلوب القلوب ، وشبه القلوب بالأودية لأن القلوب تستقر فيه أنوار علوم القرآن ، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء ، وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه ، فكذا ههنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه ، وكما أن الماء يعلوه زبد الأجسام السبعة المذابة يخالطها خبث.

ثم إن ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الأجساد السبعة كذا ههنا بيانات القرآن تختلط به شكوك وشبهات ، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى العلم والدين والحكمة والمكاشفة بالعاقبة ، فهذا تقرير هذا المثل على الممثل به ، .. وأكثر المفسرين سكتوا عن كيفية التمثيل والتشبيه.

ويشير ابن القيم في توضيحه لأمثال هذه الآية قائلا : شبه الوجه الذي أنزل الله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله .. لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير ، فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها ، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليه احتمل غثاء وزبدا ، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه وهي تمام نفع الدواء ، فإنه أثارها ليذهب بها ، فإنه لا يجامعها .. ولا يساكنها ، وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل الناري فقال : (ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله)، وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء ، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والغث ، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يسقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه ، وينتفع به غيره . ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما ، فليس من أهلهما . والله الموفق.

ويقول الحكيم الترمذي : فالحق مثل الماء الذي جرى في الأودية فسالت أودية بقدرها ، أي اختلط الحق بالباطل ، لأن النفس جاءت بأباطيلها ومناها وشهواتها التي هي إلى فناء ، فمنتها، فاغتر بها القلب ، والحق لا يفنى ولا يبلى . فقوله : أنزل من السماء ماء أي القرآن شبه القرآن بالماء ، لأن فيه منفعة الدين من الأحكام والشرائع ، كما أن في المطر منفعة الدنيا ، ثم شبه القلوب بالأودية لأنه وجد النور في القلب منفذا ومجازا ، كما وجد الماء في هذه الأودية منفذا ومجازا . ثم شبه القلوب ، وشبه الباطل بالزبد الذي يعلو فوق الماء ، فكل قلب لم يتفكر ولم يعتبر ، ولم يرغب في الحق خذله الله تعالى ، ووجدت الظلمة والهوى في قلبه منفذا ومجازا.

ولما خذل هذا القلب احتمل الباطل كما احتمل السيل الزبد الرابي ، وإذا وجد القلب التوفيق فتفكر واعتبر احتمل الحق كما انتفع الناس من الماء الصافي ، ثم وصف الحق والباطل لصاحبهما فقال : فأما الزبد فيذهب جفاء . يعني تذهب منفعته ، كذا الباطل تذهب منفعته على صاحبه في الدنيا والآخرة ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، وهو الماء الصافي. كذلك الحق ، شبه الحق بالماء الصافي لأنه تبقى منفعته لصاحبه في الدنيا والآخرة ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، وهو الماء الصافي . كذلك الحق ، شبه الحق بالماء الصافي لأنه تبقى منفعته لصاحبه في الدنيا والآخرة كما يبقى الماء لمن أخذه.

فهرس